العربي بنجلّون

الخَلْفِيَّة

مَجموعَة قِصصيَّة

مركز ليفانت لتنمية الموارد البشرية
«دراسات ودار نشر»
الإسكندرية، مصر
أدونيس للثقافة والنشر، ريف دمشق، سوريا

اسم المؤلّف: العربي بنجلّون
عنوان الكتاب: الخَلْفِيَّة
الطبعة الرابعة: ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م

جميع الحقوق محفوظة لمركز ليفانت

levantegsy@gmail.com

موبايل ٠١١١٤٣٩١٦٠٠ هاتف ٠٣ / ٤٨٣٠٩٠٣ /
عنوان: ط٣، بناء ٤٤، ش سوتر، أمام كلية حقوق
الإسكندرية، مصر
دار الكتب والوثائق القوميّة – القاهرة

رقم الإيداع: ٢٣٣٥٠ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي: 978-977-85366-1-4

المحتويات

(١) لَمْ يَكنْ إلَّا حُلْمًا!
أو في ضِيافةِ بني قُرَيْظَةَ ٥
(٢) الْخَلْفــيَّة
أو: ابْنُ بَطّوطة في كَفِّ عِفريت!! ١٣
(٣) الفياغــرا
أو رُجوعُ الشَّيْخِ إلى صِباهُ! ٢١
(٤) وقالوا إنّه فنّان!
أو كيف تُصْبحُ فنّانًا في خَمسةِ أيام! ٣١
(٥) ساعةُ الْفَرَج
أو في انتظار امْرِئِ الْقَيْسِ! ٣٩
(٦) رائحــةُ المــوت
أو الفصلُ الأخيرُ من حياتي! ٤٧
(٧) الوحْل والعَتمة..
أو حــالُ الدُّنيــا! ٥٥
(٨) اَلاْنْتحــارُ..
أو الاِنْبِطاح في زَمَنِ الاِنْفِتاح! ٦١
(٩) الفيروس
أو معركةُ الْوُجودِ، لا معركة الْحُدودِ! ٦٥
(١٠) العــائدُ
أو رجلٌ من أهْلِ السّماء! ٧٣

(١)

لَمْ يَكنْ إلّاحُلْمًا!
أو في ضِيافةِ بني قُرَيْظَةَ

قال أبو العبّاس في كتابه «أغلى الأنفاس في أخبار وأحوال الناس»: سافرنا، أنا والْخَليفة هارون الرشيد، إلى مكّةَ الْمُكرّمة لنحُجَّ معًا. وكنت ألازمه كظلِّه، لا أفارقه في حَلِّه وتَرْحاله، إلّا ليلًا عندما يريد أن يَخْلُدَ للنوم!

وكان لا يثق إلّا في شخصي، ولا يُفْشي سرًّا كبيرًا أو صغيرًا إلّا لهذا العبد الفقير، ولا يُخْفي عنّي شاذّة ولا فاذّة. ولهذا حسدني الكثيرون من حاشيته، وكَنّوا لي حقدًا دفينًا. لكن، والْحَقيقة تُقال، ظلّ يُحبّني ويقرِّبني إلى مَجْلسه، ويتغاضى عن حُسّادي، إلى أن لفظ نفسَه الأخير، رحمه الله، وأسكنه فسيحَ جِنانه!

ويا ما تساءل عامّة الناس وخاصّتهم عن هذا الْحب الكبير الذي جَمَعنا، نَحنُ الاثنين، حتّى كادوا يَجْزمون بأنّني سَحَرْتُ له، فملكتُ قلبه وعقله. وكنت بما رزقني الله سبحانه من عقل وصبر وحكمة ونباهة، أتَجاهَلُهُم تَمامًا، فأعمل نفسي كأنّي لا أسْمَعُهم، مكتفيًا في الرَّدّ عليهم بقولي:

- ذلك فضل الله يؤْتيه من يشاء!

ما علينا، وحتّى لا أُطيلَ، أختصر بما قلَّ ودلَّ، ذلك أنّني ذات ليلة، بينما أنا في غرفتي، أغطُّ في نوْمتي، إذا بي أسْمَع طَرْقًا خَفيفًا مُتَتابعًا على الباب، فنهضت فَزِعًا صائحًا:

– مَن الطارق في هذا الْهَزيع الأخير من الليل؟!

أجابني بصوت حادٍّ:

– افْتَحْ، يَأبا العبّاس، أنا هارون الرشيد؟!

فتحت البابَ غيرَ مُصَدِّق، ويداي ترتعشان:

– مَنْ أرى؟!..وليُّ نِعْمَتي الْخَليفة بلحمه وشحمه!

قال لي مضطربًا:

– والله، لَمْ يعد لجسمي لا لَحْم ولا شحْم!...أغلق البابَ بالْمِرْتاج، وتعالَ إلى جَنْبي أَسْتَشِرْكَ في أمر خطير!

أحْكَمْتُ إغلاقَ الباب داعيًا:

– اللهُمَّ أسْمِعْنا خيرًا!..لماذا لم تُرْسِلْ إليَّ فآتيَك قبل أن يرتَدَّ إليك طَرْفُك؟!

– إصْغِ إلَيَّ، يَأبا العباس، هذا ليس وقت الكلام والْمَلام!

قاطعته، وما عادتي أن أقاطع سيدي، ثُمّ أخرجت سيفي من الْغِمْد، وأشْهَرْتُهُ في الْهَواء:

– أفديك بدمي وروحي، وبسيفي أصُدُّ عنك من تُسَوِّل له نفسُه أن يَمَسَّك ولو بكلمة أو إيماءة!

عانقني قائلًا:

– أعرف يقينًا أنك تفعلها، فليس لي في هذه الْحَياة من الْمُخْلصين سواك!..أين أمثالُك، يأبا العباس؟!..أنت عُمْلة صعبة في هذا الزمان الرديء، وما جئتك إلا لتفْتيَ عليّ ما ينبغي عَمَلُهُ!.. لقد رأيت في ما يرى النائم، أنّني أَركَب في بطن طائر ضخم من

حديد، وورائي يقعد الوزراء والوُجَهاء والكُبَراء في غاية السرور والْحبور، كأننا جَميعًا مدعوون إلى عُرْس. وفجأة، جاءتني شابة بيضاء رشيقة، مثل عود البان، وهَمَسَتْ في أُذني بصوت رقيق ووجهٍ ضاحك كالقمر الْبَهِي في عِزِّ الربيع:

مرحبا بك في طائرة الْعالِ!

سألتها ذاهلًا:

– أجيبيني، يا بنتي: هل يصحبها ذَكَرُها الطائر، كما تصحبني زوجتي زُبَيْدة بنتُ جعفر؟!

أجابتني ضاحكة:

– هذه مركبة تطير، وتسير بسرعة فائقة في السماء، وليست حيوانًا جويًّا، كما يُخَيَّل لك!..اُنظرْ من هناك!

الْتَفتُّ يَميني، فرأيت شُبّاكًا زجاجيًّا صغيرًا تتسلل منه أشعة الشمَس. اقتربت قليلًا، فشاهدت تَحْتي سُحبًا وبَحرًا وجبالًا وسهولًا كأنَّها لعب أطفال!..ثُمَّ سَمِعت صوتًا ناعمًا يقول:

ارْبطوا أحزِمةَ الأمان، فالطائرة ستنزل بِمَطار القدْس الدولي!

ولَمّا توقّف بنا الطائر فوق الأرض، انفتح الباب وحده، يا سُبْحانَ الله!.. فطقطقتُ عظامي، وقمتُ أنا الأول، ونزلت سُلّمًا، فبهرَني أن أرى حُشودًا من بنِي قُرَيْظةَ، وبنِي قَيْنُقاع، وبنِي النَّضير، يصفقونَ لي، ويهتفون بحَياتي، ويرحّبون بي، حتّى شعرتَ بخدَّيَّ يتورّدان خَجلًا! لكن الذي أطار عقلي، هو أن هؤلاء ليسوا مقدسيِّين، يرتدون سراويل طويلة، وقُمصانًا ضيقة، تتدلى من أعناقهم خرَق ملونة، كأنّها حبل من مَسَد. ويتكلّمون لغاتٍ مُخْتلفة، غيرَ العربية، ما سَمِعت بِها من قبلُ ولا من بعدُ!

قال أبو العباس:

– لَمْ أشعرْ إلّا وأنا أقاطعه:

– ألا يكون كلُّ هذا الذي شاهدته مُجرَّدَ أضْغاث أحلام؟..لا تنس أنّك البارحة في العشاء، أكثرت من صَرْط اللحم بلا مَضْغ، حتى كِدْتَ تَغُصُّ، لو لَمْ أُبادِرْ إلى ضربة بيد الرحْمة على قَفاك السَّمينة!

اعْتَرض جازمًا:

– لا، لا يذهب عقلك بعيدًا، يأبا العَباس، دَعْني أُكْملْ، تَرَ عَجَبًا عُجابًا!.. ثُمّ تقدّموا منّي واحدًا واحدًا مادِّين أيْديَهُم ليسلموا عليَّ ويعانقوني، وهم يبُشّون ويَهُشّون، ويَحملون باقات من الورود والزهور العَبقة، فأشار إليّ أحدُهم برأسه ألّا أعملَ، وفعلًا لَمْ أعْمَلْ، لأن قلبي أعلَمني أنّ في كل هذه البَهْرجة سرًّا خفيًّا، وأنّ ذلك الذي حرّك لي رأسه يبدو عربيًّا من لونه، وقسمات وجهه، ولباسه، ينادونه ب)صلاح(!.. المُهم أن يدي لَمْ تلمَس يدًا منهم، ظلت نقيةً إلى أن استيقظت من نومي، وتَخلّصتُ من حلمي!

– وأين تكْمُنُ المُشْكلة، وأنت لَمْ تُعَبِّرْهُم بالمَرّة، لا بالسلام ولا بالكلام؟!

– اصْبِرْ صَبْرًا جَميلًا، ولا تَكُنْ عَجولًا، سآتيك بالبقية!.. سرتُ بين الحُشود، مُنكّسَ الرأس، ذابلَ العينين، مكسورَ الخاطر، لا أدري من أين تسلّطتْ عليّ هذه المُصيبة؟!..ووجدتُني في غرفة فخمة، مستطيلة الحَجم، لَها أربعة جدران لا نهاية لَها، تليق بمَقامي كخليفة الله على أرضه. وتتوسّطها زربية عثمانية، وأرائك يونانية، وموائد جرْمانية، عليها أباريق وأكواب فضية،

وفواكه شهية، وهات يا لَحمَ نَعام وحَمام! وفي إحدى زواياها وُضع صندوق صغير مستطيل الشكل، وجهه من بلّور متلألئ، بين الفينة والأخرى، يُظْهرني هابطًا سُلَّمَ الطائر الْحَديدي، والشاعر السَّمَوأل يَمْدَحني، ويدعو كافّة الْخُلفاء أن يَقْتدوا بي، فيصلوا الرّحمَ بأهله ويُطَبِّعوا معهم. وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّهم بارعون في فنّ السِّحر، إذ كيف يَحْملني الطائر في بطنه، أنا ووزرائي؟!.. وكيف يُصَغِّرونني، ويظهرونني على شاشة ذلك الصندوق، أنا الْخليفة هارون الرشيد، ومن لا يعرفه من أدنى الأرض إلى أقصاها؟!.. ثم كيف يستنسخون السَّمَوْأل ليَمْدحني، وهو الذي عاشَ في العصر الْجاهلي؟!.. لا لا، يَأبا العباس، علينا، عندما نرجع من مكةَ إلى بغدادَ، أن نُعيد النظرَ في ما نُلقِّنه لأبنائنا، فلَذات أكبادنا التي تَمْشي على الأرض، فلا أظنّ أنّ عاقلًا يقبل أن يطير بنو قريظة في السماء، بينما نَحنُ أمّةَ اقرأْ، نسير على الأرض!

انفرجتْ شفتاي عن ابتسامة خفيفة:

– ولكن، سيدي، هذا ليس إلّا حلمًا!.. فلا تَعْبأ به، وتشغل بالَك، فتحرمَ نفسَك النومَ!

– يبدو لي أنّك لَمْ تسمع ما قاله الأوّلون؟!

- أفِدْني، سيدي، ماذا قالوا؟!

- مَنْ خَلُصَتْ نيتُهُ، صَدُقَتْ رُؤْيَتُهُ!

أطرقتُ أفكّر، وأُدير في رأسي الفكرةَ تلو الأخرى، إلى أن لَمع ببالي أن الأمر، فعلا، خطير، لا ينبغي السكوت عنه:

- سيدي!.. ليس لهَذا الْحُلم إلّا تفسير واحد، ما دامت نيتك خالصة، وهو أنَ فلسطين ستُحْتَلُّ، لكن عينك بصيرة ويدك قصيرة!

سألني باحتداد:

- ماذا تقول، يأبا العباس؟!..أهناك في هذه الدنيا ما يستحيل على همّة الْخليفة هارون الرشيد؟!..تبّتْ يدايَ مثلما تبَّتْ يدا أبي لَهَب، وأُصْلى نارًا ذاتَ لَهَبٍ، إن لَمْ أحْمِ أرضَ العربِ!

طأطأتُ رأسي، وأجبته بصوت خافت:

- لا لا، سيّدي!..إنّ الْحُلم لا يعنيك الآن، ولن يقع منه شيء في عصرك الزاهر، وإنّما يبشّرك بأن زمَنًا بعيدًا سيأتي، فتجتمع فيه القبائل التي رأيتَها، لتحتلّ فلسطينَ كلَّها، وتطردَ سكانَها، وتشتتَهم على سائر البلدان العربية والإفرنْجية. والباقي منهم تعذبه وتسجنه تارة، تنفيه تارة، وتُقيم عليه الْحصارَ تارة، على مَرْأى ومَسْمَع من العالَم!.. فقرَّ عَيْنًا، وطبْ نفسًا، سيدي، لن ترى في عهدك ما يَهُمُّكَ ويَغُمُّك، أو يُلْحقُ بك أذىً، وردِّدْ مع الشاعر امْرئ القيس: اليوم خَمرٌ وغدا أمرٌ!

- والله لن يهدأ لي خاطر، حتى أطمئنَّ على حال أمّتي، سواء في هذا العصر أو العصور القادمة!

قال أبو العباس: ونَحنُ كذلك، كلمة مني،كلمة منه، إذ بشبح شخص يتسلل من الْجدار، فراعنا شكله ولونه. وبقينا قاعدين في مكاننا، نُمْعنُ النظرَ إليه في دهشة وذهول، وننتظر ماذا سيفعل، وماذا سيقول؟!

وفي رواية أخرى، قرأت أن أبا العباس، لمّا لَمَح الشبح، ارْتعدت فَرائصه، فطار من موضعه، واختبأ وراء الْخليفة هارون الرشيد، الذي صرخ في وجهه حانقًا:

– أين حَماستُك وشجاعتُك وبطولتك، يأبا العباس؟!.. وأين حُسامُك الْحادُّ؟!..ما لك تَخْتبئ خلفي كالصبي الْمَذعور؟!

أجابه مُتَمْتمًا:

إنّ سيفي يَحْسم الأمورَ مع الإنسان، لا مع الْمَلائكة والْجان!

ما علينا، لنكملْ حديثنا؛ أخرج الشبحُ كتابًا أبيضَ ناصعًا، وسأل:

مَنْ منْكُما هارون الرشيد، أيّها الرجلان؟!

أظهر أبو العباس رأسه، وأشار إلى الْخليفة:

– ها.. هو.. سيدي!

قال هارون الرشيد مستغربًا:

– أتَخذلُني، يَأبا العَباس، وأنا ولِيُّ نعمتك؟!

نطق الشبح بصوت عالٍ:

انْطقْ بالشهادة، يا رجل، فأنا مَلَك الْموت!

قال أبو العباس:

– واللّه لم أرَ في حياتي دمعةً تذْرفُ من عين هارون الرشيد إلّا في تلك الليلة، عندما أخذ يتوسل إلى الْمَلَك أن يأخذَني بدلًا منه، أو يرفقَ به، فيتركَه حيًّا إلى ذلك الزمان البعيد الذي سَيأتي، ليحميَ فلسطين من القبائل الغازية.

فاعترض المَلَك قائلًا:

– كن عاقلًا!.. لا تستطيع أن تظلّ حَيًّا، تنتقل من عصر إلى عصر، والأجيالُ تولد وتفنى، حتى تَحُلَّ نكبة ١٩٤٨ ثُمّ نكسة ١٩٦٧ لأنّ كلّ نفس لَها أجَل مَحْدود لا يُؤخَّر، ولو كان صاحبُها مَنْ كان!.. فقيرًا أو غنيًّا، قويًّا أو ضعيفًا، عالمًا أو جاهلًا!.. قال تعالَى: ﴿إذا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.. عَجِّلْ حينًا بالشهادة، قبل أن ينفَدَ صبري، فهناك أرواح أخرى تنتظرني الليلةَ في اليمن وبُخارى والْهند وزانْجبار والْحَبشة وصقلية...!

وأحسّ هارون الرشيد بحَشْرجة في حلقه، فأدرك أن خَدَر الْمَوت يسري في أوصاله، ولا مَفَر منه، مَصداقًا لقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ حينئذ لَمْ يَسَعْه إلّا أن ينبس بشفتيه: فلسطين، فلسطين، فلسطين!.. أيْ نعم، ثلاثَ مرات، وعيناه تغرورقان بالدموع، ثُمَّ نطق بالشهادة، وأسلم روحه إلى بارئها!

وتلك كانت وفاته، كما حضرتُها بنفسي وشاهدتُها بعيني، ليلةَ السبت مُستهَلَّ جُمادى الآخرة، سنةَ ثلاث وتسعين ومائة، عن خَمس وأربعين سنةً! فهل حقًّا سيتحقق حلمُ هارون الرشيد، فتَحتَلّ القبائلُ السالفةُ الذِّكْر فلسطينَ؟.. وهل ستتَوحّد كلمة العرب ليُحرِّروها من أبناء عُمومتهم؟!.. هذا ما لا عِلْمَ لي به، لأنّه من أحداث الْمُستقبل الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه!

(٢)
الْخَلْفـــيَّة
أو: ابْنُ بَطّوطةَ في كَفِّ عِفريت!!

أذكر أنه كان يَدْلف إلى مقهى (بوجْلودْ) مُتجهِّمًا، يلتفت يَمينًا ويسارًا باضطراب وقلق، كأنّه يبحث عن شيء ضائع. ثُمَّ يَجلس إلى طاولة متآكلة، وكرشه متدلية بين رجليه القصيرتين، يَحْتسي كؤوس الشاي الْمنعنعة بصوت حوشيّ. ومن حين لآخر، يفتل شاربه القطّي، ويَجْذب رَشْفة أو رشفتين من غليونه الْمغربي الطويل الْمزركش، نافثًا دُخانَه من منخريه الواسعين، مشكّلًا سحبًا كثيفة تَخنق الروّاد وتُعْشي أبصارهم، وصاحبنا لا يُحس بشيء، كأنّه في عالم آخر. ثمّ يَحشو ثقبتي أنفه بالسَّعوط، وشدقيه بالتّين أو التمر أو الْجبن البلدي الْمالِح، يأكل كلّ ذلك مع ما تيسّر من ذبابٍ، وما يَحضر في تلك الساعة.

كانت شخصية هذا الرجل الغريبة تثير فضولي وتأسرُني، بل كثيرًا ما كنت أُحْصي أنفاسه، أتفرّس نظراته الزائغة وحركاته الْمضطربة. ولم أستطعْ أن أُلْمِم من خيوطها الْمخبّلة إلّا النَّزْر اليسير. هل لأنّه تعوّد أن يكتم شؤونه حتى على الْجني الأسـود؟...أم أنه يَحْرص على الانزواء والانطواء، لِمَا عاناه وقاساه في حياته من آلام وعذابات؟

الْحَقيقة أنني لا أدري كيف أفسر هذا الفضولَ الآسرَ، وجاذبيةَ هذه الشخصية. لكن، بقدر ما كان صاحبُنا يتسمَّر في مكانه، صامتًا كالطير تَحومُ فوق رأسه، مُقطِّبا حاجبيه مثل نسر ذهبي، كان أيضًا يكسر هذا

الصمت بقهقهة مُجلجلة مدويّة، تَهتزُّ لَها الْجدران والأبواب، وترتجّ النوافذ والواجهة الزجاجية، والْكؤوس الْمَوضوعة على الرفوف، وتَمُجُّها الأذواق، وتستنكرها الأنظار!

ولا يَمُرّ يوم، دون أن أُسِرّ في نفسي الظَّمئَة:

– صبرًا جَميلًا، لا تتعجلي الأمرَ، كُلُّ فاكهة في فصلها تنضَج وتَحلو، فيسهل أكلها ومضغها وبلعها، وإن كنّا - نَحنُ في أرض العروبة- نتناولُها فجَّةً، قبل أوانها!...

غير أنَّ فضولي، أو تَحَرِّياتي الْمَجانيّة، لَمْ تُسْفِر عن نتيجة، باستثناء جُملة يتيمة خطفتها أذناي من فمه:

– النِّسوان ولا السياسة!...

هَمس بها صاحبنا بينه وبين نفسه، وهو يرنو من الواجهة إلى بارميت، تَخْتَال بِخُطى بطيئة، كناقة سَمينة في واحة!

لَحَظتُه بعينيّ اللتين سيأكلهما الدود، يتَلَمَّظ بشفتيه، واللعاب يندَلق على بَدْلَته الرمادية، يغمز ويهمز ويلمز، ويُظهر من جيبه أوراقًا نقديَّةً، لونُها بُنِّي فاتح، ويومئ- والعياذ بالله- إلى الْخَلفيّة التي تتمايل بها الناقة، عفوًا، أقصد الساقية، ذات اليمين وذات الشمال، وهي تبتسم ببلاهة ودلال، وتزُمّ شفتيها الْمشقوقتين، وتُهَفهف بحاجبيها وعينيها في عذوبة مصطنعة، وتضع سبّابتها على خدّها الذي لَم يتورّد من الْخَجل، كأنَّها تقول له:

«عار عليك ما تطلبه!»... ثُمَّ أردَفَتْها بإشارة من رأسها أن يتبعها، ويقتفي خطوها الوئيد، قبل أن يفلت الصيد من يديها!

نَهَض صاحبنا على الفور فرحًا، وهو يُحَلِّق في السماء السابعة، يهرول وراءها بلهفة وشراهة، قالبًا الكرسيّ على الأرض كثور هائج، والنادلُ يصيح أن يسدِّد الْحسابَ. ولَمَّا حاول أن يُمسك بتلابيبه، زاغَ صاحبنا ببراعة، وانفلت من بين يديه، ثُمَّ تابع هَرولته وراء الناقة، وعيناه لا تَحيدان عن الْخلفية، فهي الْمبتدأ والْخبر، دون أن يفطن إلى ما سقط من جيبه، التقطه النادلُ بخفة، فإذا به غلاف رسالة، لونه أصفر كالِح! فَضَّهُ بيد مرتَجفة، فلم يَجِدَ فيه إلاأوراقًا ذابلة! فبادرتُه قائلاً:

– خذْ مني الْحسابَ، وهات الأوراق! حدجني بنظرات الرَّيْبة:

– ماذا تُجْديك، يا هذا الفضولي؟!

أجبته بصرامة، وأنا أنثرها من بين يديه:

– لا تَحشُرْ أنفك فيما لا يعنيك، وإلّا أسْمعتك ما لا يرضيك!

وتعمَّدتُ أن أُبْقي في كفّه درهَمين، كي أتَخلَّص من ثرثرته وفضوله الزائدين، فأخذهما ومضى دون أن يشكرني!

الآن، وفي نهاية الأمر، سأفُضَّ هذه الأوراقَ الْمُنكمشة كوجه جدّتي، وأدقّق النظرَ فيها، لأسافر في أنْهار هذه الشخصيّة، وأنفُذ إلى باطنها!

حسنا، لنرَ الورقة الأولى:

في هذا الْمساء الحزين، قادتني قدماي إلى (بار) صغير، ليس أكثر من غرفة شحيحَة الضوء. وما أن نزعتُ سدادَ (البيرة) الأولى، حتّى أفرغها في جوفي، وأمرّر كمي على فمي، حتى أحسستُ بيد غليظة تَمتد إليّ، تُمسك بي، تقيّدني! تَحَسَّستُها حذرًا، إذْ بها يدُ أبي الْجود. ومن لا يعرفه!... هو يوجد في كلّ مكان كالْهَواء. ابتسم هازئًا:

– تعالَ معي! سألته متلعثمًا:

– إلى أين تأخذني؟! جذبني من ذراعي، وقال بلهجة حاسِمة منذرة:

– اخرسْ، لا تَجعلْني أجرجرك مثل كبش العيد!

زمَمْتُ شفتيّ، عملاً بنصيحة جدّتي يرحَمها الله:

– قلْ للقصير: احن لأبوسك. وللأعمش: سحرتني عيناك الْجميلتان. وقَبِّلِ اليدَ التي لا تستطيع قطعَها!

ساقني ككلب مريض بالطاعون..فتح القبوُ فمَه، ألقاني في بطنه الْجائع، فأحاط بي أصحابه، ينهالون عليّ بأحزمتهم وحباَلِهم الْمبللة، وأصواتُهم تتداخل، تُمطرني باللعنات البغيضة:

– اسْمع، يا بْنَ الساقطة!.. الأفضل لك أن تقول لنا الْحقيقة، كلّ الْحقيقة، بلا لف ولا دوران، فليس لنا وقت نضيّعه!

سألتهم متلعثمًا، ولساني كأنّه لاصق في سقف حلقي:

– ما.. ماذا.. تر.. يدون.. مني؟!

– حدِّثنا عن خلفيتك، يا بْنَ الزانية..!

– أية خلفية تعنون ؟!...أنا مثل القرد الصيني، أتألَّم ولا أتكلم. أمشي في ظل الْحائط...أعمل، آكل، أنام، كبهيمة عجماء!

– ماركسي، لينيني، لا تنكر!...وإلّا لِمَ تطيل لِحيتك السوداء كالقار؟

– وهل التَّيْس هو أيضا ماركسي؟

– اُسكتْ، يا بْنَ الكلب، لا تُحاول أن تستغفلنا!

كانوا يغطسون رأسي في الْماء البارد، لا يصغون إليّ، لا يكترثون بي، حتى تَهاوت كتفاي، وتقوّس ظهري:

– دعوني، دعوني أنا لا أكتُم سرًّا!.. رأسي يدور، والعالم حولي يدور كخذروف!

كانت يداي ترتعشان كمن يوشك أن يطير، ورجلاي لاتقويان على حَمْل جِسْمي! بمَشقة فتحت عينيّ، وببطء وخوف شديدين، هززتُ رأسي، وشخصتُ أمامي، فوجدتُ نفسي مُلقىً على شاطئ البحر، متكوّرًا ككيس..!

مسكين، وأي مسكين هذا الرجل، إن كانت القصة صحيحة. ولمَ لا تكون صحيحة؟..كلنا ذلك الرجل!..ما علينا، لنفتح الورقة الثانيةَ، نَرَ ما تَحْتويه.. يقول صاحبنا الْمُحترم:

– مضى على هذه الْحكاية عشرون عاماً بالتمام والكمال، من سنة ١٩٧٢ إلى ١٩٩٢. كنت خلالَها أكتب ذكرياتي الْحزينة. وكنتُ، بطبيعة الْحال، أرشّ عليها البهارات الضرورية، لأجعل من شخصي الكريم بطلًا صنديدًا، يَحْتلّ مكانه اللائق على الْخريطة العربية من الْماء إلى الْماء، وليصير اسْمي على كل لسان عربي فصيح، ينظم حولي الشعراءُ الفحولُ القصائدَ العصماء، وتصدر الْجمعيات الْحقوقية البيانات والبلاغات الساخنة..!

قبيل الفجر، أيقظني أبو الْجود من نومي اللذيذ، جرّني بصلافة، أخرجني دون أن يسمح لي بارتداء البَدْلة، وأنا خاسئ الرَأس، أتعثر بجلبابي. ساقني إلى القبو القذر، الذي فغر فمه بمُجرد أن رآني، كعادته دائمًا. كان مُعَنكبًا ومعتمًا تَمامًا، ليس به ولو فتحة نور، فتضاءل الْهواء في رئتي، وبُحّ صوتي، واقْشَعَرَّ كل بدني..!

تَحلقوا حولي وجوهًا مقطّبة، وعيونًا شرسة تتطاير شررًا:

– ماذا تريدون مني ثانية؟..أنا لَمْ أسئْ في حياتي إلى نَملة!

– قل لنا يا بنَ بطوطة: هل قمتَ برحلة إلى السودان، أو باكستان، أو إيران، أو أفغانستان، أو الشيشان، أو أذَرْبيجان، أو داغستان...؟

– لا، ولا غيرها من البلدان النونيّة!

– ولمَ تطلق لحيتك الكثة البيضاء؟!

– اللعنة على هذه اللحية، التي تَجرّ عليّ تُهمًا باطلة، لَمْ أسْلَمْ من أذاها لا في الثورة الْحمراء ولا في الثورة الْخضراء. سأحلقها حالَما يتقيَّأني قبوكم!

– هذا إذا لَمْ يأخذك الشيطان إلى الْجحيم، وبئس الْمصير!

– يبدو أنني حَشيّة قَشٍّ تتدربون عليها!

أحسسْتُ بغُصَّة في حَلْقي، والكلمات تَموت في صدري، وأنّني في دوامة لا تنتهي... وأصابني تقزز وقيء بغيض، فقذفتُ ما بِجوفي، وقذفني القبو إلى الطريق...!.

ضغطتُ على الأوراق، وطويتها بعصبيّة، وأنا أتساءل في نفسي:

– ما هذا السجن الكبير الذي نُحْشَر فيه؟!.. متى نتخلّص من قضبانه الفولاذيّة ؟!

اقترب مني النادل، وقال بلهجة هازئة:

– أخرَجوا الزنديق في ذلّة وانكسار!

سألته في دهشة:

– الزنادقة كُثر، فمن تقصد؟!

– صاحبنا الذي تسلل من المْقهى دون أن يسدد الْحساب!.. الآن سيؤديه لأبـي الْجـود أضعافا مضاعفة في القبو القذر!..على الباغي تدور الدوائر...!

سألته في ذهول:

– يا لَلشَّقي!..وماذا فعل المْسكين؟!

– قُبض عليه بتهمة اغتصاب امرأة شريفة عفيفة!

– صبرًا صبرًا، أتقصد البارميت؟! ضحك مني قائلًا:

– يا لك من أبله!..وهل يَخْطر ببالك أن هناك من هو أنقى وأطهر منها؟!

(٣)

الفـياغـــرا

أو رُجوعُ الشّيْخِ إلى صِباهُ!

في تلك الليلة، لم يُغمضْ عينه، أو يُسدلْ جفنه. بقيّ ساهرًا، حائرًا، يقضم الأظافرَ قلقًا، يذْرَعُ البَهْوَ ذهابًا وإيابًا بخُطى عصبية متلاحقة، كأنَ شَوْكَةً مغروسة في حلقه. وبين الفينة والفينة يُحَدِّقُ إلى الأرض باحثا عن شيء مَجْهول، لا يدريه..!

لقد ظهر جَليًّا أنّه أصبح، بين عشية وضحاها، صفرًا على اليسار، أو كتلة من الْخواء الداخلي. لا الْمال، لا الْجاه، لا النفوذ، ينفعه في شيء، فالأمر أكبر من إرادته، لا يتحمله الْجبل نفسه!

كان يُحسّ بالإحباط والْخيبة لشخصيته الجريحة، يبدو أشبهَ بطائر بَحري قتيل يطفو على الْماء، أو سنبلة نابتة في مقبرة. كان صورة كاملة للكآبة والقرف والغثيان، يُبحر في سبعة بُحور!

وحينما لاحت خيوط الفجر الأولى، قرّر أن يَجْعل حدًّا لهذا الأرق الذي طال، فيستدعي العلماء والْحكماء والفقهاء والوزراء والوجهاء، ليدلوا بآرائهم الْحَصيفة، ويُفتوا في الأمر الْخطير الذي يهدد البلاد والعباد في الصَّميم..!

لبث لَحظات صامتًا، هامسًا، مُقَطِّبًا حاجبيه، لا ينبِس بكلمة، لا يتململَ قيدَ أُنْمُلَة، كأنّه تِمثال من جَلْمَد!

أسئلة حَرجة تتوالد، تتناسل في ذاكرته اليقظة، تتجذّر في ذاته المُتورمة.. أسئلة مدوّخة للرأس، مندية للجبين... من أين يبدأ؟!.. والصمت يَجثُم على صدور الْحاضرين كنسر هائل!

هزّ رأسه. أرسل نظراته ذات اليمين، ذات اليسار، وأهل الْحَلِّ والعَقْد ينتظرون بصبر نافد، ماذا سيقول لَهُمْ؟!

كانوا مطرقين في صمت، لا تندُّ عنهم حركة أو حسّ، أو شفة بصوت، غير عيونهم التي تنهشه من أمّ رأسه إلى أخْمص قدمه!

ثُمَّ لَمْلَم شجاعته، لزحزحة هذا الصمت، وهذا الذهول:

– دعوتكم اليومَ لهَذا الْمجلس الْهام، لأخبركم بأنني أمضيت ليالي طويلة من السُّهاد والأرق، ممَّا أفقدني خَمسةَ عشرَ كيلو غرامًا من وزني. كما أنّ التفكير في هذا الأمر، أصابني بحالة توتر عصبي قويّ!..فلا الشمس عندي شَمس، ولا القمر قمر، ولا الأرض أرض، ولا الْهواء هواء، ولا الْماء ماء!..كل ما تقع عليه عيناي يبدو لي أسودَ قاتمًا!

إنّ القضية التي سأعرضها على أنظاركم، تصيّر الإنسان صغيرًا وصغيرًا جدًّا، مهما كبر شأنه، وثقل وزنه!...وثقوا بأنني منذ أيام، وأنا لا أجدُ لذة طعام، ولا سبيلا إلى منام، حتّى أنّني تَمنيتُ لو تنفتح أبواب السماء، فيتَبَدَّد جسمي رمادًا، يُذَرُّ على الأرض، كلّ الأرض، أو يَبْلَعُني البحر، ولا أظلّ حيًّا، أعاني هذه العذابات والْجراحات...!

ويسكت صاحبنا لَحظة، كأنّه يلتقط أنفاسه، أو يستردّ قوته، فيشعر الْحاضرون بأنَّهم في حَيْصَ بَيْصَ، وأنّ القضية تزداد غموضًا وإبْهامًا، كلّما أطال الكلام!

نَهض الْمستشار أبو الْجود مُقلِّصًا إحدى عينيه، كأنَّما يُحدد هدفًا ما:

- فهمنا، سيدي الغالي، ما تريد أن تقوله فهمًا عميقًا، ووعيناه بأتَمِّه، فاللبيب من الإشارة يفهم!.. تريد أن تقول لنا، أدام الله توفيقكم في كلّ قول وفعل، وفي كل رأي ونظر، إنّ العدوّ أغار على أرضنا، وسَبى أطفالنا ونساءنا، وسطا على خيراتنا!

قطَّب السيد ما بين حاجبيه، وتنهّد قائلًا:

- فكّر معي، يا أبا الْجود: هل يَجرُؤ العدو، ولو كان (العم سام) على هذا العمل؟..بل هل تسوّل له نفسه أن يفكر فيه أو يَحلم به؟.. لا، لا تدعْ عقلك يَشُطّ إلى هذا الْحد!

تَمْتمَ أبو الْجود خَجِلًا:

- حقًّا، سيدي، بيّض الله وجهك، وسوّد وجه عدوّك، لا يستطيع عدوٌّ أن يغزو أرضًا طال فيها عزّك!..فهل هناك، لا قدر الله، أيدٍ خفية تَحوك دسائسَ في الظلام؟

زعق السيد في وجهه، حتى كادت عيناه تسقطان من مَحْجَرَيْهما:

- وماذا يفعل عَسَسُنا وحرسُنا وجندنا؟!.. بل ماذا ترصد عيونكم الْمُشرعة، ليل نَهار، الْمبثوثة في كل مكان وزمان؟!.. ألا تعلم أن نسبة هذه الأعين تبلغ خَمسين في الْمائة، من كلّ اثنين واحد، ورُبَّما كان كاتب أو

قارئ حكايتنا هذه من الْمتعاملين معنا؟!

هزّ أبو الْجود رأسه مؤيّدًا، وهو يهرش ذقنه:

– طبعًا، سيدي، كلنا يقظون، حذرون، نُحْصي أنفاس الكبار والصغار، ونقرأ أحلامهم حرفًا حرفًا. وعندما ننام، نغلق عينًا، ونفتح عينًا، مثل الذئب تَماما!.. بل نتسلّل إلى الطعام الذي يأكلونه، والْماء الذي يشربونه، والْهواء الذي يتنفسونه. في الْمقهى، في الْحمام، في البيت، في العمل، في الطريق...!

أطرق أبو الْجود يفكر، قبل أن يُردف:

– إذن، سطا اللصوص على بيت الْمال؟

صاح السيد بوجه تكتسيه جهامة، وعينين تلتهبان شررًا:

– اخرس، وأغلق فمك بالْمَرّة!..والله لا أعرف ما أصابك اليوم، فَلقد أحرجتني بهذه الأسئلة الْخرقاء الْحمقاء!

خفض أبو الْجود رأسه قليلًا، ثُمَّ رفعه:

– وما الأمر الْخطير، يا سيدي، إذا لَمْ يَحْتل العدو أرضنا، ويسرق نساءنا وماءنا وهواءنا وبَحرنا وشَمسنا ومالنا ونفطنا وعلمنا؟!

اعتدل السيد في جلسَته، وردَّ برَوية وتأنٍّ:

– الآن أشهد أنك أَصَبْتَ، وبالصحيح نطقتَ!

والتفت إلى الْحاضرين:

– اعلموا أنني منذ ليال طويلة، لَمْ أستطع أن أذوق عسيلةَ نسائي، لَا لرفضهن، أو لعلةٍ فيهن، ولكن، لفتور مسّني، وطال الباه، وهذه علة سُهدي وأَرَقي الْمُزْمنَيْن!

تعالَى الْهمسُ والوشوشة، ثُمَّ تَحولا إلى هَرْج ومَرْج، لَمْ يوقفهما إلّا أبو الْجود، عندما قاطع الْحاضرين بصوت عالٍ، ونفَسه يتردّد في خياشيمه، يشبه البوق في حدّته:

– حقًّا ما قلت، سيّدي، أطال الله يدك في الْخير!.. إنّ القضية أخطر ممَّا كنّا نَخال ونُقدِّر، إذْ ماذا يبقى للإنسان، إذا فتر باهه، وذهب نشاطه وحيويته؟!

مضت لَحظات بطيئة، والصمت يلف القاعة الكبرى، يكتُم أنفاس الْحاضرين، الذين كانوا يتبادلون نظرات الدهشة، ولا يستطيعون الكلام. ثُمَّ تنفّسوا الصُّعَداء، حين نَهض الشيخ الوقور، ذو الوجه الوضاء، يبدّد هذا الصمت:

– سيدي الكريم!..لقد خالطتُ العلماء، وجالست الكبراء، ونظرت في أقوال الناس وأفعالهم وأحوالهم، أكثرَ من ستين عامًا...!

تفرّسه السيّد، من قُنّة رأسه إلى أخْمص قدميه، ثُمَّ قال بتوتّر:

– أوْجز أوْجز، يا شيخَنا، ماذا تريد أن تقول، فالكلام ما قلّ ودل...!

– الرأي عندي لحَلِّ هذه الْمشكلة العويصة، أن نُحْضر تِمْساحًا ذَكَرًا بِكْرًا، أي لَمْ يلامس امرأةً من قبلُ...!

قاطعه السيد متعجّبا:

– ماذا تعني بالْملامسة؟!..أتدري ما تشير علينا به، يا هذا العجوز، أم تَهرف بما لا تعرف؟!

أجابه الشيخ متلعثمًا، كأنّ لقمة وَحلَتْ في حلقه:

– إن كتب (بلْيَنْيُوسْ) تفيد بأن نساءً كُنَّ، والعياذ بالله، يتعاطين الفُجور مع التماسيح الذكور...!

أطلق السيد ضحكة عالية، وقال بسخرية:

– يا لك من فقيه نبيه!..وكيف يُمْكننا أن نَختبر عُذرية التمساح؟!

– الطريقة سهلة، كما يذكر العلّامة ابنُ رشد. نأتي بتمساح ذكر، ونَجعل مسحوقَ الذهب في خصيتيه، فإذا ظهر عند دورة قمرية، تأكّدت لنا عذريته، وإلّا فلا!.. وما يهمّنا منه (لسانه) الذي يُطحن ويُخلط بمُخ الأرنب لتقوية الباه...! واعلموا، سيدي، أن (سيرفانْتيسْ) أورد حكاية امرأة جَميلة وغنية، صوتُها ناعم، وشعرها فاحم، وقدّها سالم، يَجْثو لعينيها البشر والشجر والحَجر، مُحيطهَما يُماثل، بلاَ مبالغة ولا مغالاة، كأسَ البلار!..تقول كلّ ليلة خَميس للقمر:

– قم، يا ضئيلَ النور!

لتقعُدَ هي مكانه..!

كان السيد يُصْغي إلى كلامه باهْتمام كبير، وبين الْحين والآخر، يفْتل شاربه الطويل، لعلّه بذلك يكتم قلقًا يستحوذ عليه، فلمّا كحّ الشيخ، بادر مغتنمًا الفرصةَ المُواتيةَ :

– أتْممْ، أتْممْ بسرعة، قبل أن يثير كلامك الأحاسيسَ الْمُؤجّجةَ أصْلًا!

– عرضوا على هذه المرأة خَمسةَ رجالٍ أفْذاذ:

الأول وال، والثاني وزير، والثالث حكيم، والرابع فقيه عالم، والْخامس تاجر غني. فلم تدر أيَّ الرجال تَختار؟!..هل السلطة؟ أم النفوذ؟ أم الْحكمة؟ أم العلم؟ أم الثّراء؟...وأخيرًا، فضّلت على الْخمسة رجلًا فقيرًا حقيرًا من حُثالة البلد، كان بالنسبة لَها (كاملَ الأوصاف)!

فلما عابوا عليها ذلك، أجابتهم عديمة الْحياء:

– إن لدى الرجل أكثرَ ممَّا يَملكه أرسطو من فلسفة، وقارون من مال وجاهٍ !

لقد كان يستعمل كلَّ ليلة خَميس لسانَ التمساح، مَمْزوجًا بمُخ الأرنب. هذا الدواء الذي يبقي الرجل في قوّته، ولو بلغ سن الْمائة.. يافَتّاح يارزّاق، هبْ لنا من هذا!

فكّر السيّد لَحظة، ثُمَّ قال:

– لا أكتمك سرًّا إذا قلت إنك أقنعتني بحديثك الْحلو، وحكايتك الشيقة، بارك الله فيك، يا شيخ، لكنّني لست لك فيهما موافقًا، ولا عليهما مطابقًا، فمن أين لنا بالتمساح الذكر، وبلدنا لا يصول ويَجول فيه إلّا الْحمير والبغال، والْخنازير والضباع؟... وحتّى إذا توفّر لنا التّمساح، فالْمسألة ستطول وتتقادم ب (دورة قمرية)!..لا، لا ياشيخ، دَعْك من كلّ هذا، لا تفكّرْ فيه!

كان هناك من بين الْحاضرين طبيبه الْخاص، الذي غامر- في عزّ شبابه- بالسفر إلى بلاد نائيّة، يقال لَها (أمريكا)!..يَحكي الوافدون منها أن عماراتها شاهقة، ناطحات سحاب، لا يَحُدّها البصر. وعرباتُها فارهة، تسير بدون أحصنة، وطرقها عريضة، ليس في بلاد العربان مثلها، نظامًا ونظافة. ونساؤها يرتدين سراويل ضيقة، ويتبرجن كاسيّات عاريّات، فيظهرن كاللقالق من بعيد!..ويقال- والله أعلم- إنّ أميرًا عربيًّا اكتشفها، يدعى (كا) فسميت باسْمه (أميريكا)!.. أقول: فاجأهم الطبيب بتدخّل حاسم، فصل في الأمر:

– لقد بلغني، أيّها السيّد الكريم، أن الإفرنج صنعوا حبّة زرقاء، أطلقوا عليها اسم (الفياجرا) تُحوّل في ثوان فقط، الْخروفَ الْحيران إلى سعدان، والعصفورَ الْمكسور الْجنَاحين إلى وحش كاسر، لا عقل ولا شعور له. فحبة واحدة، فيها الْخير والبركة، كافية بأن تقوّي الباه، وتبعث فيه الْحياة...!

تَهَلَّل وجه السيّد بشْرًا، وعادت إلى شفتيه البسمة، فمدّ يديه الكريمتين، عاطفًا، حانيًا، ليُجْلسه عن يمينه:

– يسلم فمك، هذا الرأي أفضل!.. إذا صَحَّ ما تدَّعيه، وهبتك مالًا وجمالًا وبغالًا، وإن كذبت عليّ، ضربتك مئتي جَلْدة على مرأى من هؤلاء الْحاضرين...!

صمت برهة، ثُمَّ قال:

– أتَمنَّى لو كان لك جناحان، أو بساط الريح، تطير ساعة، تصل ذلك البلد البعيد، لتحضر لي حبة زرقاء، لكن، لا بدَّ ممَّا ليس منه بُدٌّ. عليَّ بالصبر، وعليك بالسفر من ليلتك هذه!

ويبدو أنّ الشيخ الوقور، لَمْ يستَسغْ هذا الرأيَ، فانتفض حانقًا، يتطاير الشَّررُ من عينيه، كمنْ لدغته أفعى رَقْطاءُ:

– لا يَجوز أن نأتي بهذه الْحبّة من الإفرنج الذين يَكُنُّونَ لنا العداء، ويستعملون موادَّ سامَّة تُذهب العقل، وتُضر بالبدن...!

كزَّ السيدُ على أسنانه، وبدأ شنبه الكَثُّ ينتفض حتّى كاد يُمزّق قميصه الْحريري، ويلطم خدّيه الْمتوردين، أو ينطح برأسه الْجدار..!

ركب رأسه، وفار دمه، وجنّ جنونه، فلوح قبضته في الْهواء، مرة ومرة، ثُمَّ هوى على خد الشيخ صائحًا، والزَّبَدُ يتناثر من فمه. أتبعها بكل ما جَمع حلقه من بصاق:

– ذنبك على جنبك، خذ مني هذه الصفعة هديّة، أيها الْخنزير البرّي!...أتريدني أن أقضي حياتي كلَّها عنّينا؟!..ما لك تنظر إليّ بعين يهوديّ، وأنا سيّدك؟!..اُغرب عن وجهي، واحْمِل حوائجك على حِمار.. هذا آخر كلامي معك!.

اقشعر بَدَن الشيخ، وامتقع لونه، حين ذاق تلك الصفعة، أمام المَلأ. وتداعَت أركانه، فانكمش على نفسه مثل قنفذ أو صبي بلَّل سرواله!.. وتَحسَّس أنفه بأنامله، فألفاه مُنبعجًا!

وبما أن «مصائب قوم عند قوم فوائد» فإن أبا الْجود، صياد ماهر، يقتنصَ الفرصَ ليأكل الكتف!

بادر السيدَ بصوت هادئ رزين:

– سيدي، أدام الله أيامك، وقصم ظهور أعدائك!..ليس هناك دليل قطعيّ على ما يقوله الشيخ. وأنا أعتبر هذه الْحبة الزرقاء دواءً لا داءً، ما دامت تؤدي إلى الصحة والعافية الْجنسية بين الطرفين. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإنّ ما يُحَللُّ لسيدي، لا يُحلّل لي ولا لغيري. كما أن في هذه الْحبة نعمةً، لا ينكرها إلا الْجاحدون. فهيّ «تغيث من قصرت شهوته عن بلوغ أمنيته من الْحلال» بتعبير الْمَوْلى أحْمَدَ بْن سَلْمانَ، الشَّهير بابْن كمال باشا، في كتابه القيم «رجوع الشيخ إلى صباه»!

وأعود إلى الشيخ الذي جنى على عينه، وما تَجني بَراقشُ إلّا على نفسها، فأقول: إنّ سلوكه المُريب، يدلّ على أمرين لا ثالث لَهما: إمّا أن هناك أياديَ أجنبية تُحرّضه وتُملي عليه ما يقوله ويفعله، لينشر الفتن والقلاقل في بلادنا الآمنة؛ وإمّا أنّ عقله تعرض للخَرَف والْهذيان أو لوثة أصابته، فأخذ يَخْرج من كلامه ويدخل في آخر، لا صلة له به. ولهذا ألتمس، أصالة عن نفسي ونيابة عن هذا الْمجلس الْموقر، الذي يضُم عُقَلاءَ الأُمَّة، أن تُصدْروا أمركم النافذ لقاضي دَوْلَتكُمُ الْمُنيفَة بالْحَجْر على الشيخ الْمخبول، ليعتبرَ به أولو الألباب!.. وليعلم الْحاضرون والغائبون أنّه من ليس معنا فهو ضدنا، هذا مبدأ ثابت، لن نَحيد عنه، لا الآن ولا غدًا...!

لَمعتْ عينا السيد لرأي أبي الْجود، فقرّبه منه، يطوّقه بذراعه:

– أكْثرَ الله في أهلي منك، فقد بيّنتَ فأحسنتَ، وفسَّرتَ فأبلغتَ، وعبّرتَ فأفصحْتَ!...قرَّ علينا يأبا الْجود بأننا سننظر شخصيًّا في هذه الْحالة الشاذّة، التي لا صلة لَها بتقاليدنا وعاداتنا وأعرافنا العريقة!

ثُمَّ نادى بأعلى صوته:

– يا خازنَ بيت الْمال، أعْطِ لخادمنا الوفي مائتي دينار...!

وعاد يلتفت إلى أبي الْجود باسمًا :

– لله دَرُّك!.. لقد دخلتَ الأمرَ من الباب، وأصبتَ قلبَ الصواب!... ألا قُلْ لي، ولا تخْشَ سوءًا مني:

– من أين أتتك كل هذه الفطانة والنباهة، وهذا اللسان والبيان، وما عهدتك إلا أبلدَ من حِمار، وأبلهَ من نعامة؟!.. أمِنَ الإفرنج الْملحدين؟!

طأطأ أبو الْجود رأسه متمتمًا:

– لا، يا سيدي، بل من الصفعة والبصقة اللتين أكرمتم بِهما خَدَّ شيخنا الوقور..!

(٤)

وقالوا إنّه فنّان!
أو كيف تُصْبحُ فنّانًا في خَمسةِ أيام!

إهداءٌ لا بُدَّ منه:

إلى وطني العربي الْجميل،

الذي يشجع الفنَّ والفنانين

والإبداعَ والْمُبدعين،

أهدي قصةَ فنّانٍ كبير، ملأ الدنيا وشغل النّاسَ!!!

كان طموحه وأمله كبيرين في أن يصبح ابنه طبيبًا أو مهندسًا أو قاضيًا يتباهى به أمام أقربائه وأصدقائه وجيرانه، وأن يُحَقّق ما لَمْ يستطع هو تَحْقيقه في حياته الطويلة العريضة. لكن العين بصيرة، واليد قصيرة، ولا توجد في هذا الكون جُمجمتان متشابِهتان، كما قال الطفل بابلو بيكاسو لأبيه!

أمضى تسعَ سنوات في الابتدائي، ولولا نزول معدّل النجاح إلى النقطة الدنيا، لَما أدرك الأولى إعدادي. وهناك بنى له خيمةً، حتى طُرد منها إلى سوق الْحرف، فمن هذه إلى تلك، دون أن يتعلم أيًّا منها، كأَنَّ رأسه قُدَّ من صخرَ، والعياذ بالله!.. ولَمْ تكن له أيّةُ رغبة أو طموح في أن يتحمل الْمَسؤولية، أو يبنيَ لنفسه بيتا، كباقي عباد الله في هذا العالَمِ!

لكن، والْحقيقة تُقال، وحتى لا نَغْمط صاحبَنا حقَّه، كان يقضي أوقاته في (الْحَلقة) يُصْغي إلى الكلامِ الْحُلْو الذي يقطر من فَم الْحَكواتي، أو الألْحان التي يصدح بها الْمُنشدون، فيردّدها معهم وينقلها طَريّةً إلى أصدقائه في الْحيّ، كأنّه كان يتمرّن عليها.

وإذا أقبل الْمَساء، يتشمّم الْمُناسبات الْمُفْرحةَ والْمُقْرحةَ معًا، فيندَسُّ بين العازفين أو الْمُقرئين، ليعرض عليهم خدماته مَجّانًا، كطَيِّ الزّرابي والْحَصائر، وجَمع الكراسي والآلات الْموسيقية ورَصِّها في العَربة. وهكذا إلى أن أتقن حرفةَ هؤلاء وحرفةَ أولئك، فألّف لنفسه فريقًا، يرتدي البَدْلَة في الأفراح، والْجلْباب في الأتراح، ولكل مقام مقال!

يومًا ما فكّر وفكّر طويلًا، ثُمّ أسَرَّ في نفسه:

– لن أفعل غيرَ ذلك، فالذين يظهرون على شاشة التلفاز ليسوا أدهى وأفضلَ منّي. ومواهبي، والْحَمد لله، في الغناء والْحَكْي، تُعَبِّد طريقي إلى الثّراء، وليس هذا على همّتي بعزيز، فعليَّ أن أجْمَع أمري، وأتوكّل على الله، كسائر أثرياء بلادي!

لَمّا شعر بأن مزاج أبيه رائق، فاتَحَه في موضوعه:

– أريد أن أسافر إلى الرباط..!

مسح الأب أذنيه الْمَرة تلو الأخرى:

– أعدْ عليَّ ما قلتَ، فربّما سَمعتُ خطأً!

مدّ رأسه نَحو أذنه صائحًا:

– قلتُ لك أريد أن أبْحث لنفسي عن عمل في الرباط..!

ضحك الأب حتى ظهرت أسنانه المَخْرومة:

– أنسيتَ أنك لا تَمْلك شهادة و لا تُتْقن حرفة، ولا حتى بضْع كلمات فرنسية تُزيّن بها كلامَك، كما يفعلون؟..أفقْ، يا بُنَيَّ، من غَفْلَتك، فأنت لا تصلحَ لأي شيء بالْمَرة، وكل جهودي التي بذلتها في تربيتك وتعليمك باءت بالْخَيبة والفشل، كأن سُخْطًا أصابنا!

استوى مسعود في جلسته، وأجابه ببرود:

– يا والدي، افهمْني: ألا تدري أنّ كلَّ أثريائنا الذين تَجْري سبائكُ الذهب من أيديهم أمِّيون، ولو درسوا وتعلّموا لكانوا إمّا مشرّدين بين المَقاهي والْحانات، وإما متسولين بأبواب الأبناك والمَخبزات؟..ألَمْ تسمع ما قاله الشاعر معروف الرُّصافي، وهو البيت الوحيد الذي حَفظته في حياتي:

ناموا، ولا تستيقظوا * ما فاز إلا النُّوَمُ

أرسل الأب نظراته نَحو مسعود، يَزِنُه بها، ثُمَّ قال:

– ما شاء الله، أصبحت حكيمًا يا بنيَّ!..يبدو أنّ دروس الْحَلقة أتتْ أُكُلَتها، عكسَ المَدرسة!.. لكنْ، ماذا ستعمل في الرباط، وأنت ترى بعينيك في نشرات الأخبار الْهراوات تنْزل على رؤوس العشرات من المُبْصرين والمُبصرات، والمَكفوفين والمَكفوفات؟

تلألأَتْ عينا مسعود، فاغتنم الفرصة ليؤكد فكرته:

– إذن، لَمْ أنطقْ عن الْهوى، فالعشرات هم الذين درسوا وتعلموا!.. أما أنا فسأتصل بابنة عمي التي تشتغل كاتبةً لدى مدير شركة الإنتاج الفني لتتوسّط لي، فأعرض عليه موهبتي في الغناء!

أضاء وجه الأب:

– حسنا، تفعل!..أنت، يا بني، تعرف من أين تُؤْكل الكتف!..لكن، لا أدري لماذا كلما سَمعتُك تغنّي في الْحَمّام، تَخْطر ببالي الآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ على كلّ، إذا كان لا بدَّ ممّا ليس منه بُدّ، فسافرْ حالًا، واطلُبْ حظَّك، ف(في الْحَركة بَركة) ومَنْ يَدري تصبح فنانَ العرب الأولَ؟!

وكان له ما أراد، لأننا تعلّمنا في الْمَدرسة، منذ نعومة أظفارنا، أن (من سار على الدرب وصل)!..وصاحبنا وصل إلى الرباط، والتقى بابنة عمّه، التي لَمْ تتردّد في عَرْضه على السيد الْمُدير الْمُحترم، وهي تَميل عليه بكنيزتها تارة، وتُلامس صدرَها كتفَه تارة، وعيناها العسليتان في وجهه الْمُتَجَعِّد:

– وهل تظنين أنني سأرفض لك طلبا كهذا؟

قال لَها الْمُدير بوجه باسم، وكرْشه متدلية إلى رُكْبَتَيْه، فيما مسعود تائه بين أثاث الْمكتب الفخم: هواتفُ ثابتة ومَحْمولة، أرائكُ، تلفاز مُسَطَّح يغطي الْجدارَ، ثلاجة، زربية تركية، ثريا تتدلى من أعلى السقف، آلات لَمْ يرَها إلا في الأفلام الأمريكية.. عدا الثريّا الآدمية (ابنة عمه) التي أسْدلتْ شعرها الفاحمَ الطويل على كتفيها، وأبرزت نَهْدَيْها اللَّحيمين، حتى أسالا لُعابَ الْمُدير، لولا أن تذكّر أن أُمَّه فَطَمَتْه، قبل ستين سنة، فلعن الشيطانَ الرّجيم!

التفت إليها سائلًا، فيما فَمُها يُطَقْطِق بِلُبانِ الأناناسْ:

– وماذا يستطيع أن يعمل؟

بادر مسعود يرد متلعثمًا:

– أُجيد..الغناءَ، سيدي، والقراءةَ على.. الْمَوْتى!

دار الْمُدير نَحوَه نصفَ دورة، ويداه مُمْتلئتان بصور الْحور الْعين من الْمُغنيات الصاعدات:

– يعني فنان!

– أجل، سيدي!..هل تريد أن أُسْمِعك بعضا من مقطوعاتي الغنائية؟

– لا، لاداعيَ إلى ذلك، فلو لَمْ تكنْ فنانا حقيقيًّا، لَما أحضرتك إلَيَّ فَطّومَة!..ولنفرض أن صوتك خَشن ومبحوح، فإن الأجهزة الْحَديثة التي جلبنَاها من أوروبا، تُحَوِّل النهيقَ إلى هَديل، والْهَديلَ إلى نَهيق!

نطق مسعود بلا شعور:

– أطال الله عمرك، سيدي!..لو كان أبي معي لَسَمِع منك هذا التّطور العلمي الْهائل في تعديل الصوت وتَحْسينه!

أردف الْمدير:

– وهذه نصيحة مني، اجْعَلْها خاتَما في أصبعك: أثناءَ الغناء، يَحْسُن بك أن تنطّ من ركن إلى ركن كالقرد، وتصفّق بيديك، وتدعو الْحاضرين إلى ترديد مقاطعَ مُعينة، لتحقّق الفُرجة بينهم، وتَهُزَّ بُطونَهم. كما ستصاحبك فنانة جَذّابة في رَشاقة الغزال برقصاتها التي تُبْرز مواطنَ جَمالها، حتى يكتمل الْمَشْهد. ولكي تكون فنانا حَداثيا، عليك أن تشكر الْجُمهور في بداية ونهاية كل أغنية بالفرنسية أو الإنكليزية، فتبتسم قائلا : مِرْسي بوكو، تانْكْيو فِريماتْشْ!

تأمّله من قمة رأسه إلى أخْمص قدمه:

– نصيحة أخرى، هي أن تُحْسِّن مظهرك، فتفرّق شعرك إلى نصفين، وتُدَلّي خُصْلة منه على جبينك، وتُسدل سوالفَك لتَمتَدَّ إلى آخر أذنيك، فالفتيات يعشقن هذه المَظاهر!

وصمت قليلا، قبل أن يُرْدف متسائلا :

– لَمْ تذكر لي اسْمَك، يابني؟

– اسْمي..مَسْعود الْجيلالي!

امْتَعَض المُدير:

– أَلَمْ يَجِدْ أبوك غيرَ هذا الاسْم، ليذبح عليه كبشا؟!

بادر مسعود:

– لَمْ يَخطُر بباله أنني سأصبح فنانا!

– لا عليك يا بني!.. ليكنِ اسْمُك، منذ هذه اللحظة، خفيفًا على اللسان: سَعْد جَلال!

ومرت الأيام والشهور، فأصبح سعْد نَجمًا ساطعًا من نُجوم الغناء في بلدي العزيز، أولئك الذين يُشار إليهم بالْبَنان، ونفتخر بهم بين الأمم. ولا تَمْضي حفلة من حفلات الإذاعة والتلفاز، دون أن يساهم فيها بأغانيه الرائعة، التي يكتب كلماتها ويلحنها ويغنيها بنفسه؛ إذ يُحْضر كلمة من الشرق وكلمة من الغرب، ثُمَّ يُلصقهما ليكوِّن جُملة، والأمثلة على ذلك لا تُعَد ولا تُحْصى، فأنتم، سادتي، تعرفونَها أكثرَ مني!

كما أنّ الصحافة المَكتوبة والمَسموعة والمَرئية، أصبحت لا تَلْهَج إلا باسْمِه وبأغانيه. وتنظم له سهرات، ليحضرها المُعجبون والمُعجبات،

فيتبادل معهمُ الابتسامات الخفيفات، والتحيّات الطيبات، ويوقّع في المُذكّرات. وتَنْشَر الْجَرائد والْمَجلات، الصور المُلتقطة له في المُناسبات، ويُجْري المُقابلات في الإذاعات والقنوات. ولا يُقام مهرجان عربي أو دولي إلّا ويُمَثّلنا فيه، ويتحدث باسْمنا، فمرَّة تلقاه في فرنسا، وأخرى في أمريكا، بل في الصين وروسيا. ولا ينزل من هذه الطائرة إلّا ليركب تلك. ويُدْلي بتَصْريحاته الصّحافية، هنا وهناك، حول وضعية الفن الغنائي في العالَم، والوسائل الكفيلة للنهوض به، وأن المُتطفلين هم الذين يَعيثونَ فسادًا في ساحته، وعلينا كفنانين مُقتدرين أن نتحمل مسؤوليتنا التّامّة، فنتصدّى لَهُم. وأن عَهْد أم كلثوم وعَبد الْحليم ومُحَمد عبد الوهاب وليلى مراد واسْمَهان وموزار وبيتهوفن قد وَلّى، لأنَّ أعمالَهُم لَمْ تعدْ تُساير وتُرْضي ذَوْقَ الْجُمْهور، الذي انْبَطحَ، عفوًا، ياسيجموند فرويد، لا تُحاسبْني على زَلَّة لساني، أريد أن أقول: انْفَتَحَ جُمْهورُنا الواعي ذو الذوق الرفيع على عصر العلم والْمَعرفة، والتكنولوجيا الْحَديثة...!

وصاحبنا (سعد) في نظر نقّاد الفن (رأسٌ وأيُّ رأس) تَخَلّى عن دراسة الْحقوق، وعن عَمَله كَمستشار قانوني في إحدى الشركات، وضَحّى بَمناصبَ عالية في سبيل الفن الذي أحَبّهُ منذ طفولته، بل رضَعَه من ثَدْي أَمه. وله مؤلّفات قيِّمة، سيُفاجئ بها مُحبِّيه قريبًا!

وذكرت إذاعة (الفن الْجَميل) أنّ الأستاذ الباحث والفنان العصامي الواعد سعد قدّم أمس باقةً من الأغاني الأصيلة، التي صفق لَها الْجُمهور بحَرارة، وظل مُتَسَمِّرًا في مكانه خَمسَ ساعات كاملة، لا يَرفُّ له جَفْن، ولا تَطْرف له عَيْن. وللتذكير فإن الفنان ذو صوت ملئ بالصفاء والعذوبة والإيحاء، يَخترق النفس، ويفجّر عاطفتها الْمَكبوتة!..وعَلمنا من مصادرَ موثوقة أنّه سيشارك في الْمهرجان الغنائي العالَمي، الذي يَقام هذه السنةَ

في مدينة النور باريس، وربّما سيترأس لَجنةَ التحكيم الدولية، إنْ قَبل، ولَمْ يتسَنَّ لنا التأكّدُ من هذا الْخبر الْهامِّ، الذي يشغَل الوسطَ الفنَي أكثرَ من أية قضية أخرى !!.. وسُئل عندما كان يغادر أرضيةَ الْمَطار عن أهم الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الْمَرأة العربية لتصبح فنانة ناجحة، تفوق شقيقتَها الغربية، فقال سيادته بكلّ صراحة: ليس هناك شروط في هذا الْمَجال الفني الراقي، سوى أن ترتدي فستانا عاريَ الصَّدر والظهر، بلا كُمَّين، ومشقوقًا من تَحْت، أو تلبس تنّورة قصيرة، تعلو الركبة بثلاثين سنتمترا، وقميصًا يُظهر الصدرَ كلَّه، كي ترعى فيه كلُّ العيون. والأهم ألا تنسى تَحْريكَ الوسط، وتَمْويجَه مع النغمات الْمُنسابة، لأنّ كّل شيء في مُجْتَمعنا العربي يعتمد على الوسط!

(٥)

ساعةُ الْفَرَج

أو في انتظار امْرِئِ الْقَيْسِ!

تَحْت سقيفة دُكان، فرَش جريدةً صفراءَ، وتغطى بأخرى، عَلَّ وعسى يَجد دفْئًا قليلًا. لكنّه ما لبِث أن أحسّ بالبرد يسْري في جسمه النحيل كالعود، فينخُر عظْمَه!

تقلّب وتقلّب الْمَرة تلوَ الأخرى، على هذا الْجَنب وعلى ذاك، ولَمْ يُحسَّ بالدِّفء، ولا بالراحة؛ إذ ذاك تَمنّى لو كان في جيبه نقود، يقدّمها رَشْوة ليعود إلى السجن، الذى قضى فيه عشرين سنةً مُنَعّمًا مُكرَّمًا، لا ينقصه شيء، سوى النظر في وجه أمّه العزيز!

إنّه أفضل بكثير من هذا المكان الْمُعْتم، والنوم في الطريق العام، بين مُواء القطط الْجُبلى ونُباح الكلاب الضّالة. والآن، الآن فقط، تَمثّل بين عينيه فُندقًا فخمًا بخَمسة نُجوم:

– آه، كم هو جَميل!.. لَمْ أحْمَد اللهَ عليه؛ كنت أحلم، عندما يُطلق الله سراحي، بأن أطلِّقه بالثّلاث، ولن أرَى وجهه، أو أسْمعَ اسْمَه، بَلْهَ أرجع إليه، أو أزور أصدقائي حتّى، ولو في الْخيال. وها أنا ذا أتَحرَّق، أتَحرَّق شوْقًا للقائه، وصلَة الرَّحم به! ما زلت أذكر أنّني بين حيطانه الصلبة العالية، الْمُطلَة على النَهر، يا ما كنت أُشَيِّد قصورًا فَخْمة، سُرْعانَ ما تَهاوتْ على رأسي، واكتشفت أنني حالم

وواهم؛ فليس هنا، على هذه الأرض، يُمْكنُك أن تَحْلم. وإلّا لماذا ظلّ إخوتك يَحْلمون بأرضهم ستين عامًا، ولا الشرق ولا الغرب حقّق حلمهم؟! رحم الله معلّمي الذي قال يومًا: «وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَد البَدْر»!.. لَمْ أفهم معنى هذا الشَّطْرَ من الشعر إلّا الليلةَ!.. إن شاء الله، إذا عدتُ إليه ثانيةً، وتَحَقّقت أمنيتي الغالية، فسأنصح أصدقائي بالْمُكوث فيه إلى أن يقبض مَلَكُ الْمَوْت أرواحهم، فلم يعد لَهُم ما يعملونه خارجه، لا طعامَ، ولا منامَ، ولا حتى الكلامَ!..وأُقنعُهُمْ بأنّهم سيندمون على فقدانه، يومَ لا ينفع فيه الندم، فعلى الأقل يَجدون هناك الْمَأوى والأكل، واللَّمَّة التي يُشَنِّفونَ فيها أسْماعَهُمْ بالأحداث الْجِسام، والحكايات والنَّوادر الغريبة. وفي كل يوم، يأتيهم نزيل جديد بقصة مشوقة. ويفنى الزمان، ولا تفنى تلك الأحاديث والأخبار والقصص، التي لا يَخْلو مُعْظَمُها من نكات وقَفشات. أما هنا، فسيفتقدون كل لَحْظة حَميمية. لكن، كيف أعود، وأنا ودّعْته صباحَ هذا اليوم النَّحْس؟!.. وماذا أحكي للذين يُردّدون، منذ سنوات طويلة: هيهاتَ هيهاتَ أن نُبْصر النور، إنّا هنا قاعدون؟!..هل يُصَدّقونَني؟!.. لا لا، بالطبع!

نَهض واقفًا، وخطا خطوات قليلةً، فغمر عينيه نورٌ أحْمرُ، يومض من بعيد. تابع السيرَ خطوة خطوة، وهو يُمَنّي نفسَه بشيء يسَلّيه، يُرَفّه عنه، ويُنْسيه هَمَّهُ وغَمَّه. لم يكن ذلك النورُ إلّا علامةً دالّةً على حانٍ:

– لمَ لا أملأُها نبيذًا مُعَتَّقا، ثم أكَسِّر الكرسيَّ على أُمِّ رأس النادل، إن ألَحَّ عليَّ بالأداء، وفي الأخير، أعترفَ، من الوهلة الأولى، وبدون لَكْم ورَكْل وغَطْس الرأس في الْجَفنة، بِجُرْمي الْمَشْهود،

وباقترافي له عن سَبْق وإصْرار. وإذا قالوا هذا لا يكفي، فسأُسَدِّدُ لَكْمَةً لكلٍّ منهم، لتَكونَ عليَّ حُجَّةً قاطعةً، فيعيدوني تَوًّا إلى داري القديمة، وأهْلها الطيبين. ويا حَبّذا لو تأتي إحدَى اللكمات ضربةً قاضية، فأُحْكَم بالْمُؤَبَّد!

فكّر في داخله، ودَلَف إلى الْحانة مُنَكِّسَ الرأس، بين قَعْقعة الكؤوس، وجَلَبَة الْمُنْتَشين، وقهقهاتهم العالية، وصوت (نَجاة الصغيرة) يَصْدَح ببُحّته الرقيقة:

– القريب منك بعيد، والبعيد منك قريب!

ضحك النادل منه، حتى استلقى على الطاولة الخلفية:

– لَمْ أرَ منذ سنوات زبونًا بلحية، ويا لَها من لحْية كَثَّة ملونة!.. كما لو أنّ بنات الليل والسّاقيات تصَدَّقن على وجهك الْمسْكين بشُعَيْرات بيضاء وصفراء وشقراء، ذكّرَتْني بقوْس قُزَح!

تَفَرَّس صاحبُنا هذا الْكائنَ الغريب من قمة رأسه إلى أخْمَص قَدَمه، ثُمَّ ردّ عليه ببُرود:

– انتظرْ، فعند الفجر ستُكْرمك اللحية الْمُلونة كرمًا حاتميًّا، لَمْ يَجُدْ به عليك زبون آخر من قبلُ!

حَدَجَه النادل بنَظرات الرِّيبة:

– أرجو أن تَفيَ بوعدك!

رد فورا، كأن جوابه كان على طرف لسانه، ينتظر دَوْرَه ليقفز:

– لست عُرْقوبًا فأُخْلفَ وعدي!

سأل النادل:

– ما علينا!.. قل لي: ماذا تشتهي نفسُك؟

أجابه بلا تردّد:

– هاتِ ما كان يشربُه امْرُؤُ القيس!

فجْأةً، دخل شخصٌ ضخمُ الْجُثة، يَحْمل بين كتفيه رأسًا صغيرًا، وبعينين زائغتين الْتفت يَمينًا ويسارًا، فرأى صاحبَنا جالسا في ركنٍ. ابتسم له ببَلاهةٍ، واقترب منه باشًّا في تَكَلُّف ظاهر، كأنّه يؤدي عملاً فَوق طاقته، ثُمّ ألقى بثقل بدَنه اللّحيم علىً كرسي خشبي هزّاز! مطّ عنقَه، ومال بِجسمه إلى الأمام:

– أهلاً بالأستاذ المُحترم!.. الْحَمد لله على سلامتك!

غاص صاحبنا في مكانه دهشةً وذهولا، ولَمْ يستطع أن يردّ التحية بأحسنَ أو أقلَّ منها، كأنّ لسانَه تَحَجَّر في فمه، وهو الطليق الفصيح! وبصعوبة قفزت من فمه كلماتٌ مضطربة:

– وجهُك الدّميم غيرُ خاف عليَّ!.. منذ سنين.. لَمْ أرَكَ..ولا أدْري بالضَّبط في أي مكان قَّدر التقيتُ بك!..ولا المُناسبة التعسة التي جَمَعتنا.. اَللَّهُمَّ اشْحَذْ ذَاكرتي، وفَكِّرْني بالشَّهادة، يَا أرْحمَ الرّاحمين!

أردف الشخص متسائلًا:

– كيف تنسى تلك الليلة البهية، التي نظّمْنا فيها حفلَ تكريمِك، أنت

ورفاقك، وأرْسَلْناك إلى دار الضيافة عشرين عامًا، لا ثلاثةَ أيام؟.. حاول، حاول أن تُعَصر ذاكرَتَك، فتستحضر تلك الليالِيَ الْجَميلةَ التيٍَ لا تُنْسى!

أطرق يفكر لَحَظات، ثُمَّ هَزَّ رأسه:

– صدقتَ!.. كنتَ، بالأمَارة، رئيسَ الْحَفل التكريمي!..وأذكر أنك كنت شابًّا متوترًا، لا تستقرّ على حال. يَحْلو لك أن تفتح عَمْدًا أزرارَ قميصك، لتُبْرزَ صدرَك الْمُشَعَّرَ أمامَ زبائنك، الذين كانوا من الْمُدرّسين مثلي.. والكُتّاب والصّحافيين والفنانين!.. والآن، خَطَّ الشَّيْبُ شعرَك، وتَجَعَّد وجهُك، وفتَر صوتُك، الذي كانت الجدرانُ تَرقص له!

قاطعه باسمًا:

– الزمان هَدَّنا جميعًا، وعَرَّى سَوْءاتنا جَميعًا، لا الفاعل ولا الْمَفعول به، فأردنا أن نُصْلِح أخطاءنا، وألّا نَجعلَ التاريخَ يُعيدُ نفسَه!

سأله في دهشة:

– لكن، من أخبرك بوجودي هنا، علْمًا بأنني لست من رُواد هذه الْحان، وفندقكم لفَظني صِفْرَ اليدين؟!

أشار إلى امرأة مُتَرَهِّلة وراءَ الرَّفِّ الطويل:

– الساقيّة!.. إنّها إحدى عيوني الْخَفية، بدونها لا أرى ما يدبّ فوق الأرض وتَحْتها. ولولاهَا لَمَا سُمِحَ لك بالدخول، لأن شعرك أشْعث، وثيابك غير مُهَنْدمة، وقَدَمَيْك تتقلقلان في حذاء بلا شِراك!.. على كلٍّ، هل أنت في يقظتك الكاملة؟

تردّد قبل أن يُجيب:

– أجل، أنا في قواي العقلية التّامّة!..ماذا تريد أن تقول؟..هل تفكر في حفل تكريمي آخر؟.. أنا مستعد له، وسأكون لك مَمْنونًا لو تفعل، يا حفيدَ حاتم الطّائي، بل اُكْتبْ ما تشاء في تقريرك

من تُهَم مُلَفّقة، كعادتك دائمًا مع زبائنك، وسأُمْضي عليه بعينين مُغمّضتين!

ارتسمتْ على شفتيه ابتسامة خفيفة:

– لا لا، يبدو لي أنّك لا تُساير الأحداث، لأنّ زمنَ التّكريم وَلّى، وودّعْناهُ إلى غير رَجعة. لكن، حلّ مَحلَّه تكريم البلدان المُارقة، التي لا تَمْتَثلُ لأوامر الدول الكبرى! أعرْني أُذُنَيْك لَحْظَة!.. لقد تيقَّنّا بما لا يدعو إلى الظنّ، وبعضُ الظنّ إثْمٌ، كما تعلم حضرتك، أنّك استوعبت الدرسَ جيدًا؛ إذْ أهْدَرتَ عقْدَين كاملين من حياتك سُدى، ولم تنلْ جزاءً ولا شُكورًا، ولا نَحْن أيضًا. ونساك أقرباؤك وأصدقاؤك، وعَدّوك فتى طائشًا!.. لهذا قرَّرنا أن نُعيد لك الاعتبارَ الذي تستحقُّه، أي نُعَوِّضك على تلك السنوات الضائعة، منذ هذه الليلة المُباركة، فماذا تقول؟

رفع صاحبُنا رأسَه نَحوَ السقف، فتراءى لعينيه سَماءٌ صافية، ينفتح بابُها، لتُسْقطَ على قُنَّته سَبابيكَ ذهبيةً. فلم يَخْطر بباله، ولا كان ينتظر أن يَجْنيَ مَن سنواته الماضية هذه المُكافأةَ المُجْزيَةَ. ولَمْ يشعر إلّا وهو يَمْسك الرأسَ الصغير بكلتا يديه، ويُقبِّل ما بين عينيه، ويقول له:

– أعتقك الله من النّار الحامية، كما أعْتَقْتَني من ذُلِّ الدنيا الفانية!.. سأنسى الماضيَ وأهلَه، وأُعانقُ المُستقبلَ وجيلَه، فالحياة قطار طويل، يركبه

هذا وينزل منه ذاك! وثقْ بي، يا سَخيَّ اليد، ويا حلْو اللسان، أنّني سأُلَمِّع وجهَك الذميم بما يقتضيه الحالُ والمَقام، وأسُدّ كلّ الأبواب التي تنفُذ منها الريح، ولن أَخْذلَك ما حَييتُ، أو أعزف لغيرك، مثلما يفعل الذين (يأكلون الغَلَّة ويسُبّون المِلّة) أو (يشربونَ من البئر ثُمَّ يبصُقون

فيها) لا لا، أنا رجل مبادئ وقيم عليا؛ لن أنزل من قطارك، حتى نصلَ معا إلى المَحطّة التي نَنْشُدُها...!

وأنا ما زلت وفيًّا للْمُعلم (ماوْ تْسي تونْغْ) الذي قال:

– «إذا دخل شعبُك إلى ملعب الكرة فادخل معه» ولا تظلَّ واقفًا وحدك بعتبة الباب!

قطع النادل حديثهما بابْتسامَة خَفيفَة وانْحناءة مهذبة، طمعا في إكرامية سَمينة، قائلا في ما يشبه الإغراء:

– اشرَبا هنيئًا مَريئًا، فالْحديثُ لا يَلذُّ إلا بمَشروب شهي مثل هذا، يُعَدّل مزاجَكما!

انتصب صاحبنا واقفا، ثم انصرف خارجًا، وهو يُمَسِّد لحيتَه الْمُلَونة، ويقول بعينين متلألئتين:

- احتفظ بمشروبك اللذيذ لحين يَحضُر الشاعر التّائهُ امرؤ القيس، فَنحن لَمْ نَعدْ ننتمي إلى العصر الْجاهلي!

(٦)

رائحــةُ المـــوتِ

أو الفصلُ الأخيرُ من حياتي!

«أبي، هل ينتحر الكثير من الرجال؟

– ليس الكثير!

– ومن النساء ؟

– بالكاد!

– أبي، هل المَوت صعب؟

– كلا، أعتقد أنّه سهلٌ تقريبًا، إنّه يتوقّف على الْحالة».

«جنة عدن»: أرنست همنجواي

لا أكتمك سِرًّا إذا قلتُ:

– إنّ هناك مسألةً، تشغل بالي، تضغط عليّ، تُحاصرني في يقظتي، تؤرقني في نومي، ترعبني في حلمي:

– لِماذا المَوت؟!

– كيف ينتهي الفصل الأخير من حياتي؟!

– هل يدْهَسُني قطار، كما حصل لصديقي (م) منذ حوالي أربعين عامًا..؟!

إنّ صورته ما تزال ماثلةً بين عيني، وأنا أشخص إلى جثته، طريحةً على السكة، مُضرجة بالدم!.. إنّه قريني، يظهر ويَختفي حينًا، يتبعني كظلّي حينًا آخر!.. يُمْكنني أن أجزم، دون شك أو تَحَفُّظ، أنّه السبب الذي يَجعلني، لحَد الآن، أخشى الْموت. وإن كانت أمي تُخالفني الرأي، فهي كثيرا ما تَقول لي، وتردّد على سَمعي بالْحرف الواحد:

– عندما كان أبوك يلفظ نفسه الأخير، ضمّك إلى حضنه بيديه الْمرتَجفتين، وباعد ما بين شفتيه الباردتين، ليلقي قبلة على خدّك الوردي (حاليا تغطيه غابة كثيفة من الشعر)..لكن عزرائيل، حضر في تلك اللحظة، ليحول بينه وبينك!

ما زلت أذكر، إن لم تَخُني ذاكرتي الْهَشَّة، كان عمي يومها يرنو إلى أمي، يَمُطُّ شفتيه، بين الْحين والآخر. ولّما أراد أن ينصرف من الْمنزل، قال بعتبة الباب، وهو يُحرك سبابته في كفّها:

– ستجدينني دائما بِجانبك!

كنت فتىً في عمر الزهور - كما علمني الْمعلم أن أكتب في الإنشاء- لَمْ أفهم جَيِّدا حركةَ عمي الْمُريبة، حتى نَما (عودي) بتعبير أبي نواس، وشرعت، أنا أيضًا، أمارس تلك الْحركة (الْمريبة) مع الْجنس الآخر (طبعًا).. ألست من خرِّيجي (مدرسة) عمي النُّواسية؟!

كانت سنّي لا تتجاوز عشرَ سنواتٍ، وأنا أعلم يقينًا أنّ للموت أثرًا كبيرًا على نفسيتي كطفل!

على كلّ، لا أريد أن أذهب أكثر في تَحليل هذه الْمسألة، لعلَّة بسيطة جدًّا، هي أنني لست حكيمًا أو فيلسوفًا أو عالمًا نفسانيًّا. وسواء كنت مُحقًّا أو مُخطئًا في كلامي، فالنتيجة التي يُمكنك أَن تستخلصها، هي أنني أخشى الْموت، لا أفكر فيه، أو على الأقلّ، هكذا أحاول. ستسألني: لماذا؟..أجيبك: إن التفكير في الْموت - يقول ألبير كامي- يفضي حتمًا إلى الانتحار!

والسؤال الذي يفرض نفسه:

- هل كان كامي يفكّر في الْموت، عندما ارتطمت سيارته بشجرة؟!
- وهل نعتبر هذا التفكير سببًا وحيدًا في إدخال أرنست همنجْواي فوهة البندقية في فمه لتفجير دماغه؟!
- وهل أتاك حديث الشاعرين الأردني تيسير سبول والتونسي أبي القاسم الشابي، اللذين أرادا أن ينتصرا على الْمرض الْخَبيث، فانتحر الأول بطلقة رصاص، وتوفي الثاني، فكان الْمرض أقوى من فُتُوَّتهما!.. إنّ البعض يُحبّ الْمغامرة والْمخاطرة والتجربة، فيرحل إلى العالم الْمجهول، عالم ما بعد الْموت، ليسبُر أغوار خباياه وخفاياه. أو عندما يصل إلى قرار نهائي، لا يستطيع أن يستمر أكثرَ في هذه الْحياة الْمُملة، أو يتحمَّلَها، إمّا لإحساسه الْحادّ بالانكسار والإحباط، وإما لقناعته أن حياته التي عاشها بالطول والعرض لم تعد لَها أيةُ قيمة، لأنّ كلّ أيامه أصبحت نسخًا متشابهة، كالحَة باهتة، لا تَحمل جديدًا، أي يسقط فريسة الْملل والرَّتابَة والتَّقزُّز والغثيان! وهناك من يَختار ساعة وطريقة موته، مثل الكاتب الياباني (يوكيو ميشيما) الذي كان ، كما يقول هنري ميللر: «رجل عقل وحصافة مُمْتلكًا معنى الْحدود الإنسانية»!

أحيانا، تَجدني في عزلتي أغنّي، أو أكلّم نفسي كمن أصابته لوثة عقليّة، علّني أتناسى الْموت..! وفي كلّ ليلة أبتلع قرصًا ينوّمني، لكن أحلامي الْمرعبة، توقظني لكي أبتلع قرصًا آخر. كما أتَحاشى القصص، الروايات، الْمسرحيات، الأشرطة الْمُرعبة، التي تثير صور القتل والدماء والْجرائم الفظيعة. وأهيم في الْهزلية منها، أو التي يُسْدل ستارها على

النهايات الْجميلة : وهكذا تزوج جَميلٌ ببثينةَ، فأقاما الأفراح، والليالي الْمِلاح!..أو عاشا في ثبات ونبات، وخلفا صبيةً وبنات! وأذكر أنني في شَبابي، لم أجرُؤْ يوما علَى الشِّجار، أو تَهديد الغير ولو بالكلام. غير أنني، والْحقيقة تقال، كنت حينما أخلو بنفسي، أكتب قصصًا طويلة، أبرز فيها عضلاتي، أشهر سيفي الْخشبي على شخصياتي الورقية. أسعدها أو أشقيها، أغنيها أو أفقرها، أحاكمها بقانوني الْمزاجي، فأدينها أو أبرئها، وكم عذبت وأعدمت وأحييت بقلمي هذا، أكثرَ ممَّا أحيا وأعدم جنكيز خان، وأدولف هتلير، وأرئيل شارون، وهولاكو خانَ...!

وأنا كاتب، أبني وأدمّر ما أشاء في أوراقي البيضاء. لكنّني أرفض الْموت، لأنّه سيحرمني من لذّة الكتابة، وما يتيحه عالَمُها الفسيح من أحلام وأوهام، تسلّي نفسيتي الْحَزينة الْكَئيبة!

لم تستطع تَجْربتي العمريّة الطويلة، أن تُخَلّصني من شبح الْمَوت، الذي يستحوذ على خلايا فكري، ويطفر إلى ذهني، كلما صكّ أذني هدير قطار. بل تَجدُني، مهما تقدّم بي العمر، أموت شيئًا فشيئًا، أنتظر لَحْظة الْحسم، فأصبحت مصابا بفقر الشجاعة، لا بفقر الدم...!

سأسرد لكم حادثةً:

- الفصل صيفًا، وأنا أمتطي الطائرة إلى طوكيو. لَمْ أتردّد قيْدَ أنْملة، أو أفكّر في التخلّي عن السفر، فتذكرة الرحلة هدية من دار نشر مؤلفاتي، ومهما حاولت أن أدَّخر قسطًا من حوالتي الْهزيلة أو مكافآتي لحَجْزها، فلن أفلح، فهي تسدّ رمقي بالكاد! لم أتأخر لَحْظة عن السفر! ذهبت إلى الْمطار قبل الْموعد الْمحدّد بخمس ساعات، حتّى لا تفوتني هذه الفرصة، التي لا تتحقق لكاتب فقير مثلي، ولو في الْحلم! غير أن شبح الْموت اللعين، عاد

من جديد لينغّص عليّ سفري؛ فما أن حلقت بي الطائرة، حتى أحسست بأنني اقترفت خطأً فادحًا، دون تفكير أو شعور مني!

أخذ لوني يَمْتقع، دمي يتجمّد في شراييني، ركبتاي تنخَرُهُما الرهبة، ألَمٌ حادٌّ يضغط على صدري ويد حديدية تَمتد إلى قلبي، تقلّص من نبضاته القوية السريعة..!

كانت الطائرة تتراءى لي مرْجلًا تغلي على نار ملتهبة، تنبعث منها أصوات خشنة، ليّنة، إنَّها أصوات الذين رحلوا عن هذا العالم اليبابي المْوبوء. وليس ببعيد أن تكون أصوات شخصياتي الورقية، التي عذّبتها في الزنازن والسجون السرّيّة، ثم أعدمتها، دون مُحاكمة ولوْ صوريّة!

قلت في نفسي:

– ما لي وللسفر في الفضاء؟!.. ألم يكن حَريًّا بي أن أموت على الأرض، في بلدي، قريبًا من أسرتي؟!..كيف تصير جثتي بعد سقوطها من هذا العلو المُذهل؟!.. هل ألتقي بأبي وصديقي هناك، كما قال لي الفقيه في الكُتاب...؟!

ظلّت أسئلة الدهشة، تنثال على دماغي، تتوالد، تتناسل بشكل كبير، والْهواجس تنتابني، بين الفينة والفينة:

– يا إلَهي!.. اقرأ عليّ السلام، هذه نهايتي...!

الآن، أستلقي على أريكتي، صحبةَ الْموت، نعم، الْموت، الذي استدرجني إلى الفضاء. عزرائيل يتسلّل عبر النافذة بوشاحه الأبيض الطويل، يدنو منّي، يبتسم لي:

– مرحبا بك، أيها الْجَبان، الذي تعتدي على شخوصك الورقية!.. لن تصل إلى طوكيو. الْحُلم!... إنّه الفصل الأخير من حياتك، وأنت في قبضتي..!

– لماذا لا ترفعها عنّي، فأموت برغبتي؟!

سألته، فأجابني :

– للموت، كما للحياة، أجل لا يُختار ولا يؤخّر!

يُمْكن أن يكون المْوت، في هذه اللحظة، يتقمص صديقي (م) الذي داسه القطار. ويُمكن، وهذا ليس ببعيد. أن يتجسد في أبي، وهو يُحاول أن يَجذبني إليه، ليطبع خدي بآخر قبلة!

نظر إلي صديقي (م) بحَنق وغيظ، ثُمَّ كزّ على أسنانه قائلًا :

– لماذا لم تثأر لي، كنّا معًا، أيّها الأناني؟..أين نضالك الستيني والسبعيني والثمانيني؟..هذه فرصتي التي أقصم فيها ظهرك، أهشم جُمجمتك !

أردف أبي في أسىً شديد :

– أصْغ إليَّ!..مهما طالت سلامتك، فإنّك ستضطر إلى أن تُقرّ بهزيمتك!.. تعالَ، يا بني، لا تَخشَ المْوت!... تعال، نصبَحْ جسدًا واحدًا. تعالَ نُقمْ في عالم آخر، يرفض الأنا والنرجسيّة، والاستغلال البشع والظلم، ويقدر الإنسان وآمالَهُ...!

أحسست بدوار، فانطلق لساني يهذي، كمُصابٍ بالْحُمَّى:

أرفض أن أموت، لن أسقط من أعلى..!

كنت لَحظتَها بين السماء والأرض، بين الواقع والوهم، بين اليقظة والْحلم، كان إحساسي بالزَّمكان معدومًا تَمامًا. لقد ألقيت بنفسي، بمَحْض إرادتي، بين أنياب الوحش - المْوت، الذي يتربص بي، ويطاردني مُنذ طفولتي...!

– اربطوا الأحزمة من فضلكم !

نبهتني المْضيفة هامسة، والطائرة تنزل، تنزل، تنزل!... أتنفس عميقًا: شهيقًا، زفيرًا، شهيقًا، زفيرًا، شهيقًا، زفيرًا..!

هناك في طوكيو، آتيه، أفقد لوني، قسماتي، هويتي، كينونتي..أصير رقمًا بين ملايين المْلايين، بل (روبوتا) يُحرّكه آخرون، يَخدُمهم، ينفذ أوامرهم... لقد متّ، فعلًا، دون أن أشعر...!

وبينما أنا أسير، إذْ بياسوناري كاواباتا يباغتني، فسألته مستغربًا:

– عدتَ ثانية ؟!.. لماذا حرمتنا من عالَمك الروائي؟!

– كنت أعاني من حالة الكآبة المْزمنة، منذ طفولتي، حينما توفي والدي في الثالثة من عمري، وفي ١٩٧٢ عثر علي جثة، في فمي أنبوب غاز إلى رئتي. كنت أعترض على الصيغة التي قبلتها بلادي في الْحرب العالمية الثانية، بألّا يكون لَها جيش يَحميها، وها هي، الآن، خاسئة الرأس أمام العم سام!

لَمْ أنفرد بهذا الإحساس، فصديقي يوكيو ماشيما، الفائز بجائزة نوبل، شاطرنيَ هذه المْعاناة، ثُمّ انتحر على طريقة الْهاراكيريَ، سنة ١٩٧٠.

بادرته قائلًا:

– ماذا أفعل، وأنا أراهم يَمدّون لي أيديهم المْلوثة بالدماء، كأنَّهم لَمْ يقتلوا نفوسًا بغير حقّ؟!

هل أدير ظهري لشهداء (صبرا) و(شاتيلا)؟..وماذا عن (جنين) و(كفر قاسم) و(الفلوجة)؟..لا، دعني، لن أقتفي أثرك. سأحيي شخوصي الورقية الآنَ، الآنَ، وأحَوِّلُها إلى أبطال!

(٧)

الوحْل والعَتمة..أو

حــالُ الدُّنيــا!

«تعيس هو الوطن الذي يفتقر إلى أبطال»:

مسرحية «حياة غاليلي»

برتولت بريشت

كلُّ لغات الدُّنيا، الْحيةِ والْميتةِ، تُكتب من اليسار إلى اليمين، إلا لغتي، فهي مقلوبةٌ!

الفرنسيس، والصينيون، والإنقليز، والبرطقيز، والْمريكان، والطاليان، والروس، وغيرهم من الإفرنج، يساريون، ماعدا العُربان، فهم يَمينيون!

نستأسد، نستنسر على بعضنا البعض!.. ننهش، نفتك بلحم إخوتنا في الْملة والدين واللغة!...لكننا نَمشي في الظل، نُحاذي الْجدار، ننكس الرؤوس، نَهز الراية البيضاء، عندما يبرز الآخر، أو يكشر عن نيوبه ولو من بعيد، أعني (العم سام) وأقاربه!.. وحتَّى إذا ما تَجرأنا، وهذا نادر، والنادر لا حكم عليه، فإننا نكتب عريضة:

«نَحن الْمُوقِّعينَ أسفلَه، نَحتج ونستنكر ونُدين... ونُهيب بذوي (الضمائر الْحية) أن يتصدّوا بكلّ بسالة ومسؤولية لهَذا الْخطر الداهم، الذي يستهدفنا في الصميم...».. أو نعقد مؤتَمراتَ، نصدر في ختامها توصيات، نناشد من لا حياة له...!

هناك، وراء البحار، يغرسون الأشجار والأزهار، وهنا يقلعونَها!.. هناك يربون القطط والكلاب والطيور، وهنا يرشقونَها!..هناك يشيدون للضالة منها غرفا فخمة، ويُعنون بالْهَرمة والْمريضة منها، وهنا يلهث أطفالنا، ليل نَهار، باحثين عن مأوى أَو لقمة يسدّون بها الرمق!... هناك يبنون الْمدارس، الْمعامل، الْمستشفيات، وهنا ينسفونَها!.. هناك يغرسون الأفكار، يتعهدونَها حتى تنمو، فتزهر أدوية، آلات، صواريخ، وهنا ينصبون لَها الْمشانق والْمجانق..!

نَحْن أبطال أشاوس، سلوا التاريخ عنّا، إن كنتم لا تقرأون التاريخ!.. نَحْن كأجدادنا وأبنائنا الأفذاذ، سنوقدها عليهم حَمراء، لا يدرَأها إنس ولا جان، نطمس كلّ حيّ، فلا نبقي ولا نذرّ، بل سنقطع دابرَ أخبارهم...!

نَحْن هنا نَجترّ اللغة، نتيه في أقاليم لفظية، نتلو ما تيسر من بلاغات، ولا غرو فالشعر ديوان العرب، وعلينا أن نَعَضَّ على لغة الضاد بالنواجذ، ونُصَنِّم الْماضي الْمطلق، ونتمسك بأعرافنا وعاداتنا وتقاليدنا العريقة، ونشنّ حربًا شعواء على الْجديد الوافد، الذي ينال من شخصيتنا وهويتنا ووجودنا وكينونتنا..!

ونَحْن لسنا في حاجة إلى بترول أو دولار، أو أنترنيت أو تكنولوجيا حديثة، بل إلى النظر في ماضينا البعيد، والغوص في تراثنا التليد، ومُحاربة الفكر العنيد..!!

مررت يومًا في سياحتي على بستان من بساتين أرض الكنانة، وكان ذا أشجار وأنْهار وأطيار، تسبح للواحد القهار، فلقيت العالم الوجيه جلال الدين عبد الرحْمن بن أبي بكر السيوطي.

قال لي بالْحرف الواحد:

– دخلت على شيخي مُحْي الدين، فبادرني قائلا: اعرب (زيد قائم).. أجبته على الفور: لقد صرنا في منزلة الصغار...!

فقال: إن لي فيها مائةً وثلاثةَ عشرَ بَحثا!

قلت للسيوطي باسمًا:

– ألا تعلم، يا سيدي، أن الأمير شكيب أرسلان نقد حديثكما هذا؟

نظر إليّ، وسألني في دهشةٍ وذهول:

– وماذا قال، يا تُرى؟!

– قال: «وما سبقنا الأوروبيون في الْمعارف العمرانية، والوسائل الْمادية، إلّا باشتغالنا بمثْل (زيد قائم) بينما هم يقضون أوقاتَهم بالعلوم الرياضية، والتجارب الطبيعية، حتى تفوقوا وتغلبوا علينا»!

ضرب بكفه على كتفي كأنّه يؤيّد:

– لله دَرُّ هذا الكاتب النِّحرير!

والْحقيقة أنني لَمْ أصدق هذا الكلام، حتى رأيت في الْمنام، رؤيا غريبة، تقشعر لَها الأبدان، ويبيض شعر الولدان! لم أرَ أصْلا مثلها، لا من قبلُ ولا من بعدُ، وأنا الذي قضيت حياتي كلَّها في النوم والْحلم، لا أفيق إلّا لآكل ما لذّ وحلا ومشى وطار وعام، وأحتسي كؤوس الشاي الْمنعنعة، ثُمَّ أعود إلى سُباتي وشخيري! هكذا حكم عليّ أحبّتي وأهلي وعشيرتي، أن أظلّ دائمًا نائمًا حالمًا، إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

ما علينا!.. لقد رأيت حفيدَ (صلاح الدين) كما يسمّيه البعض، والله أعلم بغيبه وأحكم، يبتلع تفاحة لقمة واحدة، ظنًّا منه أنَّها ألذّ مساغًا، وأخفّها نزولًا إلى المْعدة. والعربان من المْاء إلى المْاء يصفقون بحماسة، ويبرقون بكياسة:

«هنيئا مريئا بالوجبة الشهية!»

وما كادت اللقمة الشهية تنزل إلى المْرئ، حتى غصّ صاحبنا،

فلعن امرأة حاذقة، ألْهمته أن يتناول التّفاحة الطّيبة، ليس بينه وبينها إلا مدُّ اليد والرجل! ويؤكّد المْؤرخون الذين لا يُخالط علمهم جهل، ولا يشوب صدقهم كذب، أن عُبَّاد الصليب، أرسلوا سفيرتَهم لتوحيَ إليه، ومن ثَمَّة تغرقه في الوحل:

– لو ذقت التفاحة لوجدتَها ألذّ وأشهى من كل فاكهة. خذها خذها، سكن قلبك، لا تتردد أو تَخف!.. اقطفها، لا تَحْرم نفسك من حلاوتِها وطراوتِها..نَحْنُ لا نريدها!

فلو لَمْ يأخذ كلامها بالْجد، تشبثًا بالْمثل القائل: (جانِس قبل أن تُجالس) لَمَا وقع في المْحظور!

ومهما يكن من أمر، فإنّ ذوي الرأي السديد والْحكمة البليغة، قالوا كلامًا كثيرًا وأفاضوا فيه، وأطالوا النظر في هذه القضية، وعلَّلوها تعليلًا.

والذي أذهب إليه أن الإفْرنْج – لعنهم الله – لعبوا بالفاعل والْمفعول، والأكل والْمأكول، ليُنْهكوا الأول، ويوحلوا الثاني في شَرَك الديون!

كانت أصوات الرجال والأطفال عالية تنبعث من حلقه، تستنجد وتستغيث!.. والنساء ينادين فلا يُجَبْن، ويتضرعن فلا يرحَمن، كأنّ

جيرانَهن وبني جنسهن صُم، بُكْم، عُمْي، لا يُرجى منهن خير، كالقابض على الْماء تَماما! وفي طُرفة عين، ورمشة جفن، انْهالت أيدي الإفرنج على القفا السمينة، تكيل لَها الضربات الْموجعة، حتى تقيأ الْمسكين التفاحة. فحمدنا الله سبحانه على هذه الْحال، وإن ظل صاحبنا عليلًا، لا يقدر أن يردّ من الصّحة ما كان ذهب!

ولحد الساعة، لا أدري ما إذا كانت هذه رؤيا أم حقيقة، فأبو حيان التوحيدي يعتبر اليقظة التي لنا هي بالْحِسّ نومًا، والْحلم الذي لنا بالفعل يقظة !

لقد بكينا حتى جَفّت دُموعُنا...! وصرخنا حتى بُحّت حُلوقُنا..! أما آن الوقت لنفتح القبور، وننفخ في الْموتى، فينهضوا وبين أيديهم قناديل مضيئة..؟!

أنقذونا إننا نتجرع الصُّبار والْحنظل، ليلَ نَهارَ، غَصْبا عن النفس..! أنقذونا إننا نغوص في الوحل، من الْماء إلى الْماء !

منذ عشرة أيام..

أو رُبَّما عشرة أعوام..

أو عشرين قرنًا بالتمام..

لم يظهر نور..

يبدِّد هذا الظلام !

(٨)

آلانْتِحــــارُ..

أوِ الاِنْبِطاح في زَمَنِ الاِنْفِتاح!

بيني وبين القبر مدُّ الرِّجْل، أي خطوة واحدة، لا أقل ولا أكثر. عمري يناهز السبعين عامًا، وما زال قلمي، لحَد الآن، ينظم قصائد طويلة، وإن كانت هزيلة، لا تلقى آذانًا صاغية، أَو ترقى إلى بَدايتي الشعريّة، التي تألقت فيها نَجْمًا لامعًا بين الشعراء الفحول. وأصبح اسْمي على كل لسان، يشار إلَيَّ بالبَنان، سواء في الْجرائد والْمجلات والْموسوعات، أو في الْمؤتَمرات والْملتقيات الوطنية والعربية، بل حتّى في الطريق العام.. ذلك فضل الله يؤتيه لِمنْ يشاء!

كانوا يسمونني (شاعر الْجماهير العريضة) قبل أن أسقط من أعلى الْخشبة، أي قبل أن أنتقل إلى الضفة الأخرى، ضفة العملة الصعبة والثراء والفخفخة وبُحْبوحة العيش..!

ما زلت أذكر أنني أول من انْخرط في الزمن العربي الْموبوء، وشؤونه وشجونه حتى النُّخَاع!.. والتحمت، لَحَمًا ودمًا، مع بطل هذا الزمن، أعني الإنسان الكادح، الذي يَحيا بين فَكَّي الرَّحى، ويَلْفَحُهُ شَرَرُ الواقع القَذِر من أجل الْخبز الأسوَد!

وكانوا - الطلبة والعمال- يُحاصرونني في طريقي، يلتمسون منّي التوقيع في مذكراتِهم الْخاصة. يلتقطون لي صورًا، ويُمطرونني أسئلة

حَرجَة عن تَجربتي في الكتابة. كما كانوا يَحْفظون قصائدي العصماء، يردّدونَها في عيد العمال، يُلَحِّنونَها ويُغَنّونَها. وتعيد الْجرائد اليوميّة نشْرَها في أعلى صفحاتِها الأولى، تتصدرها صورتي الْملونة طبعًا، وأنا فاغرُ فمي..!

وكان الصحفيون والْمذيعون والْمصورون يتهافتون علي، والرسائل والْمكالَمات تباغتني كل لَحظة، سواء كنت نائمًا، أو ثَملا، صُحْبَةَ الكأس والوجه الْجميل!

وبقدر ما كنت أتلذّذ وأتبغدد بهذا الاهتمام والاحتفاء والإعجاب الشديد، كنت من جهة ثانية أشفق لِحال الشعراء الآخرين الذين عاشوا في الظلّ، وإن جَنَوْا ثَمنًا باهظًا لسكوتِهم وحيادهم.

أذكر أنّ الكثيرين، كانوا إذا لَمحوني مارًّا، يقفون ويغمغمون هَمسًا، وهم يومئون إلَيَّ:

– إنّه شاعرنا الكبير!.. ما أعظمه!..يفضّل أن يسير راجلًا في الطريق، بينما الآخرون لا نرمُقُهم إلا لماماً كهلال رمضان، يَمتطون سياراتهم الفارهة، ويسكنون فيلاتٍ فخمةً!

الآن، يُمكنني أن أُدْلي برأيي الصريح للحقيقة والتاريخ، بلا تَحفظ أو خجل أو لف ودوران.. إنني أنتحر رويدًا رويدًا..! ستسألونني بانبهار وذهول كبيرين:

– كيف تدحرجْت من أعلى القمة، إلى أسفل السفح، وأنت في خريف العمر، أيها الشاعر الْحكيم؟!

اعلموا، سادتي الكرام، أنّ الأرض لَمَّا دارت دورتَها الكاملة في هذه العشرَ سنوات، تغيّر العالم من حولي، حتّى بدا لي كأنّه مُسخ!.. إنّ كلّ المُثل والقيم والمبادئ، والجمال والحب والوفاء، والأنفة والكبرياء، لم تعد إلا شعارات فارغةً، يَعْلُكُها شدْقايَ، وينتفخ بها وَدَجاي. أستطيع أن ألعب بها، وأتاجر فيها، وأقلبها كما أفعل بقُفازَ يدي!.. ودمي ما عاد يفور ساخنًا في عروقي - كعادتي دائمًا- وقلبي ما عاد ينبض بالأرض والإنسان!.. تيبّس في كلّ شيء، ولم يبقَ لي غيرُ الصدى الذي يتردّد بين صفحات الجرائد الخمسينية والستينية والسبعينية!

لَمَعَ ببالي، وأنا أشكّ فيما أعي منذ الخمسينيات، وفيما أرى وأسْمع في التسعينيات:

– لماذا لا تنبطح كالآخرين؟.. لماذا كل هذا العناد؟.. ماذا تَجني منه؟.. جدار برلين ينهار، يتلاشى، وأنت ما تزال منتصبًا كعصا موسى، تعاند الريح؟!.. هذا عصر جديد، عصر العولَمة، عصر الانفتاح والانبطاح، هل تفهمني؟!.. لا عربي فيه ولا أوروبي، لا شرقي فيه ولا غربي.. الكلّ سواسية كأسنان المُشط!.. فكّر جيدًا في سيارة فارهة، وحساب بنكي، ونفوذ وكرسي دوار، وفنادق خَمسة نُجوم، وإلّا ستفوتك الوليمة، ولا يفضّل لك إلّا الفُتات.. فتاتُ المَوائد!.. خُذْ علي سالم، أو خذ أفضلَ منه إميل حبيبي مثالًا تَحتذيه وتقتدي به. لقد قال بالحَرف الواحد ولمَنْ يعي النصيحة الغالية: إنني لَمْ أعُد أستطيع حَمْل بطيختين في يد واحدة. ناصحًا المُبدعين ألّا يلتزموا بأية نظرية، لأنّها تَحُدُّ إبداعَهُمْ.. يا سلام!

أنكرتُ نفسي، وأنا أتفرس في الْمرآة!.. وجهي الدَّميم يَختفي وراء لحية كثّة... أدركتُ أنني انكمشت، فانسحبت إلى الدائرة الْمفرغة باللسان واليد والْجسد... أصبحت لا أنبس إلا بكلمات مقتضبة، وأكتفي بإيماءة، مقطبًا عابسًا.. أنطق بقدر، وأصدر أوامري بقدر، ولا أردّ السلام والتحية على بني آدم إلا بقدر!.. وأصدقائي الطيبون، هم أيضًا، أدركوا ذلك. عدُّوا صوتي نشازًا، فَانْفَضّوا عنّي تَمامًا، وتنكّروا لي تَمامًا، كأنّني أخ للإيدز.. والْحقيقة تقال:

«إن ظلمي لذوي القربى كان أشد مضاضة من الْحُسام المهند...»!

كيف لا أنكر ذاتي، وأنا أرى بعيني الأرانب تَمتطي الفيلة؟..كيف لا، والقمر يبيع وجهه مقابلَ هشةٍ وبشةٍ من بغلة السيد؟

لقد انتحر في ذلك الشاعر، الذي عانق الأرض والإنسان، وملأ الدنيا وشغل الناس، خلال ثلاثة عقود، ذلك الشاعر الذي تعلّق بالعالم، وتوحّد به، وتبصَّر في أبعاد الْحرية والنضال الوطني النبيل، ذلك الشاعر الذي كانت الإنسانية الشقيّة تعيش في لَحمه، تسري في دمه.. ولم يفضُل منه إلا هذا الشبح (الغريب الوجه واليد واللسان) كما يقول أبو الطيب الْمتنبي!.. فلو أردتُ، اليومَ، أن أغسل قلمي القذر من النَّتانة العالقة به، لأعيدَ إلى الْحرف نَضارَتَه، وإلى الكلمة وَهْجَها، لَمَا صار أبيضَ نظيفًا، كما كان من قبلُ!

سادتي، لا تأسفوا عليَّ، ولا تيأسوا مني!..لعلّ قلمًا آخر، يأتي نقيًّا، يُبدّد هذه العتمة التي تدثركم من الْماء إلى الْماء، ويَنْفُذُ بكم إلى الفضاء الفسيح، كي تَنْشَقوا نسيمًا طَلْقًا!

أما هذا القلم الْمُدنّس، فاقرأوا عليه السَّلام في البدء والْختام..!

(٩)

الفيروس
أو معركةُ الْوُجودِ، لا معركة الْحُدودِ!

قلت في نفسي، وأنا أسترق النظر يومًا إلى غراب أسود تَمامًا، ذي منقار مُدَبَّب تَمامًا :

– لن يَمُرَّ هذا اليومُ بِخير..!

التقطت حجرًا صُمًّا. قذفته بكلّ جهدي، فحلّق عاليًّا، ينعق بصوت بغيضَ..!

توجّست خيفة، فأسررت:

– لا بد أن تَحلّ عليّ اللعنة..!

خالَجَني إحساس حادٌّ بالتطير، أن أفتتح صباحي الباكر بهَذا الطائر النَّحْس، الفأل السيء، الذي سينهي يومي حتمًا بنهاية مريبة. فخطر ببالي أن أجعل حدا لشؤمي بقضاء يومي في الْمنزل، كما كان يفعل علي بن العباس بن الرومي...!

هكذا علمتني أمي، حذّرتني من البومة الذميمة، والغراب ذي السلهام الأسود، والقطّة التي تنفرد عن سائر الْحيوانات، الناطقة منها والْخرساء، بسبع أرواح..!

كانت أمي يرحَمُها الله، تقول لي:

– احترس من القطّة!.. إذا ضربتها، أو صحت فيها، أو حبستها، فلا أنت أطعمتها ولا أنت أطلقتها، يصيبك سوء في جسدك أو ولدك..!

دلفت إلى غرفتي. خلعت بَدْلتي. لبست منامة خضراء، عفوًا، حَمراء اللون. ثم ألقيت بجسمي على السرير الوثير. سحبت إزارًا أبيض على رأسي الثقيل، وأغمضت عيني، مستسلمًا لدوامة من الأفكار السوداء...!

تَمْضي اللحظات، ونبرات صوتي تَخبو شيئًا فشيئًا..!

تَمضي اللحظات، وأنفاسي تتلاشى، كأن شخصًا ما من الوزن الثقيل يَجثُم على صدري، يَخنقني بيدين قويتين!

كلّ الأشياء الْجميلة، حال شكلها، تلوّنت بالرمادي، تضاءلت رويدًا رويدًا...!

أسْمع حشرجة حنجرتي جافة، فيلتصق لساني بحلقي، كأنّه ذبابة في أسْر العنكبوت..! ووجدتني أفتح عيني، على مَلَك عظيم الْخلقة، يَمتطي فرسا من نور، ويرتدي حلّة من نور، لم أرَ مثله شكلًا ولا أصلًا، ولم أقرأ عنه في كتاب، أو أسْمع به في قصص جدّتي الطيّبة..! هالني شكله، فاقشعر بدني، ووقف شعر رأسي. خفت على نفسي. سألته، وأنا أحَملق في حلته النورية:

– لم أرَكَ من قبلُ.. هل أنا أهْذي أم أعقلُ؟!

جاءني منه صوت غير الصوت، أجنبي عني، غريب لم تألفه أذني:

– أنا الذي أهزم اللذات، وأفرّق الْجماعات!..أخرّب الدور، وأعمّر القبور!.. أيتّم الصبيان، وأرمّل النسوان!.. أفجع الأحباب، وأغلق

الأبـواب!.. أنا ملك المْوت، يا كومة من اللحم البارد، والشعور الْجامد...!

دَهَمَني ألَمٌ صاعق، فسألته بأسىً حادٍّ:

– تأتيني، يا سيدي، وأنا لم أستعدَّ بعد؟!

أجابني بلهجة قاسية:

– طبعًا، تعمّدتُ أن أفاجئك فأحول بينك وبين حَماقاتك!.. سأجرعك كأس المْنيّة حتّى الثمالة بلا ندم، أحببت أم أبيت!.. سأدمّر جسدك الضئيل هذا، أحوّله إلى نَهر رماد، فلا لزوم للعنادواللجلجة..!

قلت له، وروحي تتردد في حنجرتي، تطلُع وتَهبط، تطلُع وتَهبط:

– لماذا تَحكم علي بالْموت؟!.. ماذنبي؟!.. ماذا فعلت من أخطاء فَتَحْرمَني حياتي؟! تفرسني من رأسي إلى أخْمص قدمي، ثُمَّ قال هازئًا:

– لست جديرًا بالْحياة، ولا بأن تَحمل اسم (عربي)!.. أتدري لماذا؟.. لقد بعت تاريخك، ثقافتك، جغرافيتك، ورُفات الشهداء مُنذ صلاح الدين الأيوبي!.. أدرت ظهرك لأطفال الْحجارة الذين كانوا أول من يستشهد وآخر من يَجني..! لماذا لَمْ تلقّح جسدك ضد الفيروس؟.. تركته يتسلل، يَنْخَرُ ذاتَك، فأفقدك مناعتك وحصانتك الطبيعيتين..!

بين عشية وضُحاها، غيَّر جلدَك، بدَّل لغتَك، فانسقتَ (قَطيعًا) للابنة المْدللة (أرض المْيعاد) ول(شَعبها المْختار)..وأصبحت (الولدَ البارَّ) الذي يحضنه، ويرضى عنه (العم سام)...!

ليس جديرًا بالْحياة، ولا بأن يَحمل اسم (عربي) من تناسى أنّ صراعه مع الفيروس، هو صراع وجود، لا صراع حدود!.. ومن مَحا من ذاكرته نكبة ثَمانية وأربعين، وعدوان ستة وخَمسين، وهزيمة سبعة وستين، وملايين العراقيين والسوريين واليمنيين والليبيين، وآلاف اللاجئين والْمشردين من الفلسطينيين، منذ سنين وسنين..!

كان عليك، يا كتلة من اللحم البارد، أن تنقذ أرضك من السقوط والفوضى والْخذلان!

أنْ تدشن تاريخًا جديدًا، بعدما أعلنوا عن نهاية التاريخ، بدل أن تؤدّي وظيفة البقرة الْحلوب لفيروس ليس له مَن الفضائل إلا الفتك والبطش..!

أوقفت فكرك عن التطور منذ قرون. حرمته من أشياءَ وأشياءَ أساسية لتطوير ذاتك وواقعك الْمريض، وتقوقعت في دائرة الْماضوية، فكل ابتكار مَحظور، وكل جديد مهدور!

اتَّهمت بالْهَرْطقة والزندقة العلماء والْمفكرين الْمجتهدين الذين دفعوا عجلة الْحداثة إلى الغد، كابن رشد وابن خلدون والرازي والراوندي، وابن الْمقفع والْحلاّج، وطه حسين وعلي عبد الرازق، ومُحَمد أحْمد خلف الله وحسن حنفي، وفرج فودة وحسين مروة ومهدي عامل، وفاطمة الْمرنيسي، والقائمة طويلة...!

قاطعته، دون أن أزيح عيني عن حلته:

– لم أكن أدري، ياسيدي، أأنا قائد نفسي أم مَقودٌ؟..أأنا سائر بإرادتي أم

مسيّر!..كان هَمّي الوحيد أن يرضى عني الآخر، ويَمنَحَني شهادةَ حسن السلوك، كابنٍ بارٍّ يعمل بالنصائح الغالية!

ردّ بصوته الْجَهْوَريّ مؤنّبًا:

– عجبًا لك، يا هذا الرجل الغافل!..كيف تَحيا في الظلام، وحولك الشمس ترسل نورها ساطعا؟!.. لو كنت تزن أقوالك وأفعالك بالعقل، وتُحصي على نفسك خطواتها، لَمَا حالفك الْحظ العاثر، وحدك، أو تعبر مسافة الآلام، التي نسجتها يداك الآثِمتان وحدك..!

أجبني دون لَفٍّ أو دَوران: أين ستخفي هذه الْهزائمَ والْخرائبَ الثاوية في عُقْر الذاكرة؟!.. ماذا سيقول الأب لولده، والْمعلم لتلميذه، إذا سألاهما عن الأشياء الأكثر فداحةً؟!

أَلَمْ تفكر في الشهود الذين سيدلون بشهادتهم يوم القيامة، يوم تشهد عليك يداك وعيناك وأذناك، يوم تشهد عليك الْجبال والتلال، والسهول والْحقول، والأشجار والأنْهار والأطيار!

كان قلبك مَعْميًّا، وبصرك معميًّا. لَمْ تَمْلك في دنياك غيرَ غرامياتك الباريسية واللندنية. وبذاءاتك وطموحاتك الرعناء، وتكديس الْمال في البنوك السويسرية، وتلميع الأحذية الأمريكية والأوروبية..! ولَمَّا أنْهى الْمَلَك كلامه، أومأ بأصبعه:

– أجهزوا على الْخائن...!

صحت بصوت عال:

– دعوني، لن أرحل، لن أرحل!

كزّ على أسنانه قائلًا:

– مثلك ينبغي أن يرحل عن هذا العالم، وعندها فإنّ كلّ من يعرفونك سيحتفلون بهذه الْمناسبة...!

وإذ برجال طوال، كأنَّهم عمالقة، يَخرجون من باطن الأرض.. أربعة أمسكوا بيدي، وأربعة تربّعوا على صدري، وأربعة جلسوا على رجلي، وأربعة دخلوا في جوفي، وأربعة قبضوا على لساني. وعند ذلك، صحت دون شعور:

– واويْلاه، ليت أمي لم تلدني...!

ولفظت آخر آنفاسي...!

حاول أهلي وأصحابي عبثا أن ينهضوني!.. رشّوا وجهي بماء الورد والزهر!.. شَمَّموني البصل والعطر!.. دعكوا أرنبة أنفي. وضَعوا سكينًا ومفتاحًا في يدي الْجامدتين!.. دعوا لي وهللوا!.. تلوا ما تيسر من آيات!.. فعلوا الْمُمكن والْمستحيل، فلم أنْهض، أو على الأقل، أتَململ أو أطرف بعيني..!

لبثت هكذا مُسْجى على السرير، صامتًا، أصيخ سَمعي، ولا أستطيع أن أنبس بِحرف، بَلْهَ بكلمة..

أتوا بالفقهاء والْحكماء، فلم يفيدوا شيئًا! نادوا على الطبيب، فحضر حينا. جس نبضي. هزّ يدي، ثُمّ تركها تسقط جنبي. أطرق يفكّر قليلا، ينظر إلي آنا، وإلى أهلي آنا آخر. أراد أن يُخفي آثار الدهشة والْحزن الْمرتسمة على وجهه، فلم يستطع. بلع الكلمات والْحروفَ بصعوبة، جثم الْعَيُّ على لسانه.. وفي النهاية، لَمْ يَسَعْه إلا أنَ يُسْبِل عيني، ويضمّ يدي..!

انطلقت زوجتي تنتحب، تندب، تضرب فخذيها وتلطم خدّيها بأسى وحرقَة. لا تَهدأ إلّا لتعود ثانية إلى العويل ملء حنجرتها. وأطفالي يتشبثون بها، يبكون، يصرخون بأعلى أصواتهم. والْجيرانَ، من الْخليج إلى الْمحيطَ، يتوافدون، يعزون ويواسون. هذا كل ما يَملكونه..!

كانت أذناي تلتقطان أصواتا صاخبة، لم أستطع أن أفُكَّ خيوطها المُخَبَّلة، أو أصُدَّ أصحابَها عني، وأكفكف دموعهم السخينة...!

غسلوني، كفنوني، وإلى القبر حَملوني. غطوني باللحود. وأهالوا علي التربة. ثم تركوني في لُجة الظلمة الدامسة، وهم يدعون لي بالرحْمة والغفران..!

لا أذكر، أفي اليوم الثاني أو الثالث، فوجئت بخَدَر البرد يُحْكم قبضته على جسدي، وبلحمي يهترئ، يتساقط قطعة قطعة، نتنة الرائحة، فيما كان الدود يتهيّأ للوليمة..!

(١٠)

العـــــائدُ

أو رجلٌ من أهْلِ السّماء!

في بداية الْخَريف الْماضي، قبل أنْ يرحلَ إلى العالَم الآخر، قال لي بوجه باسم، وصوت هادئ، وهو على فراشه يَحْتضر:

– لا تقلقْ، بُنَيَّ، سأعود في فصل الربيع، وإنْ قُبِضَتْ روحي!

لَمْ تنزلْ من عيني دمعةٌ واحدةٌ، لأنني كنت أثق به، أي أنه سيرْجع إلَيَّ، وإلى أمي الْحَنون، التي لَمْ تطقْ فراقَه. لقد كان صادقًا طولَ حياته، ولَمْ يثبُتْ أنْ كذب ولو مرّةً عليّ أو على غيري!

مرَّت الشهور بطيئةً، انتظرتُ فيها بشائرَ الربيع، لألتقي به من جديد. وما أنْ صَفَت السَّماء، وتفتّح الزَّهر، واخْضَرَّت الأرض، وأيْنَع الشجر، حتى انصرفَتُ من البيت، أبْحَث عنه في مَقاهي الْحَي. ذلك أنه كان يتردد عليها، ليُجالس أصدقاءه، ويتبادل معهم آراء وأفكارًا في الأدب والْمعرفة والْعلْم، وليطالع الْجَريدةَ من ألفها إلى يائها، لحَدّ أنْ كان النادلُ يتجاسَر عليه أحيانا، فيتقدّم منه حانقًا، لينتزعَ من يديه الصحيفةَ، ويَحْملَ من أمامه الصينيةَ، وبقايا الشاي الْمُنَعْنَع ما زالتْ في الكأس، ثُمَّ يَمْسح الْطاولةَ بعصبيّة، كيْ يَفهم أنّه أمضى وَقتًا طويلًا، متسمِّرا فوق الكرسي، وعليه أن يتركه لزبون آخر...!

ويوماً ما، بينما كنتُ أتَجَوَّل مع صديقي، أنظر هنا وهناك، إذْ بي أرْمُقُهُ صُدْفَةً، جالسا في مقهى أبي الْجُنود، ماسكًا جريدةً، كعادته دائمًا، فهمستُ في أذن صديقي بعينين زائغتين:

– سُبْحانَ الله، إنّه هو، إنّه هو!..لقد عاد بِجلبابه البُنِّي، وطربوشه الأحْمر، وبلغته الصفراء...!

الْتفَتَ إلَيَّ يسألني متعجبًا:

– من تقصد؟!.. ومن أين عاد؟!

أجبته متأكدا:

– أبي!.. عاد من العالَم الآخَر، كما قال لي!.. لَمْ يُخالف الْمَوْعدَ!

انْفَجر ضاحكًا، يضرب كَفًّا بكفٍّ، فأثار انتباهَ الْمارِّين بقهقهاته الغريبة، وقال بصلافة ماعَهِدْتُها فيه:

– يا لكِ من أبْلَه!.. أيرْجِعُ من يَموت إلى الْحَياة؟!.. ما كنتُ أظنّ أنني أرافق الْبُلَهاءَ والْمَجانين!.. حقًّا، إنّه يشبه أباك، لكنه رجل ثان، لا علاقة له بك إطلاقا!.. هيّا نُغادر الْمَكانَ، ولا تكنْ حالمًا أو واهمًا!

لَمْ أتأثَّرْ بكلام صَديقي، فدَعَكْتُ عينيَّ ثَلاثًا، وأرسلتُ إثْرَها نظري متمعِّنًا بجدٍّ، لأتأكَّدَ من شخصه. فأدْهَشَتْني هالة برتقالية خفيفةً من نور تَحُفُّه من كل جوانبه، كأنّه من أهْل السماء!

جذبني من ذراعي، فنزعتها منه بتحدٍّ وثقة، وبقيتُ واقفا في مكاني:

– دَعْني، أنا أعرف والدي جيّدًا، ولنْ أُخْطِئَ فيه!.. اُنْظُرْ، ماذا سأفعل!

أوْمَأْتُ له بيدي، فردَّ بإيماءة واضحَة، وابتسامة عريضة على مُحَياهُ، ثُمَّ لَمْ يلبثْ أنْ وضع الصحيفةَ جانبًا، وأَخذ يُلَوِّح لي أنْ آتيَهُ!

قلتُ لصديقي فَرِحًا:

– أرأيتَ ؟!.. لوْ لَمْ يكنْ أبي، هل كان سيأْبَهُ بي؟!

هَزَّ كتفيه غيرَ مُبال:

– رُبَّما أراد الرجلُ أنْ يُجاملَك، وهذا غالبًا ما يقع!

وصمت قبل أنْ يسأل:

– هل قرأتَ ما تيسَّر عن حياة الفراعنة، أو العراقيين القدامى؟!

تساءلتُ بدهشة:

– لا، ما علاقتي بهِمْ ؟!.. أنا في المَغرب، وهُمْ في المَشْرق!

أردَفَ كأستاذ في علْم التاريخ:

– أنت تُذَكِّرني بمُعْتَقداتهم في البعث والْخُلود!.. فَمُنْذُ بضعة أسابيعَ، دَلَّت الْحَفْرياتُ في الضاحية الْجَنوبية للقاهرة على مركب فرعوني يرجع إلى المَلك السادس (دن) في العهد الأول للفراعنة، كان المُتَوَفَّى يَحْتَفظ به في مقبرته للعبور إلى العالَم الآخر!..كما أن العراقيين القدامى، كانوا يقسمون العالَمَ إلىَ نصفين: عُلْوي وسُفْلي. ويعتقدون أنَّ (تَموز) إله الطبيعة الْخَضْراء الْجَذابة، يهبط في الْخَريف إلى العالَم السُّفلي، ويؤوبُ إلى الْحَياة في الربيع، حاملًا معه نعَمًا لَهُمْ!

ربَّتُّ على كتفه:

أُبَشِّرُك، ياصديقي، بأنني لَمْ أقرأْ شيئا عن الفراعنة ولا عن العراقيين، لأنني بكل بساطة أهتم بالمُستقبل فقط!

كان أبي يعاني من آلام الرَّبْو، لا يَخْفُتُ سُعالُه، ليلَ نَهارَ، ولَمْ ينفعْ معه دواءٌ، سواء ما وصفه له الأطباء أو العَشَّابون. وكنتُ متعلِّقا به، منذ نعومة أظفاري، أتألَّم لمُعاناته، ولا أفارقه إلا قليلًا، حتّى أصبح هاجسي في يقظتي ومنامي. ولهذا كان يَخشى أن تأتيَ بغتةً لَحْظَةُ موته، فتمَسَّني نوبةٌ قوية، تُفْقدني حياتي، وأنا في عزِّ شبابي...!

تقدّمتُ منه بخُطى مضطربة، فيما كان صديقي يسير خلفي في دهشة وذهول عارمين، يبلع ريقَه غيرَ مُصَدِّقٍ، لكنه أراد طَمْأنَةَ قلبه!

عانقني أبي بحَرارة، وقال لي، وهو يُرْسِل طَرْفَه إلى صديقي، كأنّه يعنيه:

ألَمْ أقلْ لك إنني سأعود؟.. ها أنا ذا، الآن، ماثلٌ أمامك، لكنْ...!

اعْترضْتُ دَهشًا:

ماذا تقصد، أبي؟!

– قطعتُ عَهْدًا على نفسي، أنْ أظلَّ في الْعالَم الآخر، لأنّني ألفَيْتُ فيه الرجالَ الرائعين من السابقين واللاّحقين، وراقني الْجَوُّ هناك، فَلَمْ أعُدْ أعاني شيئا من آلام الرَّبْو البغيض، الذي نَخَرَ صَدْري وسَلَّهُ!.. وبالله عليك، كيف تريدني أنْ أهْجُر أرضًا كلّها جَنَّات وعُيون، وناس يقابلونك بوجوه ناعِمَة، لا تسمع منهم إلّا سلامًا سلامًا؟!

بادَر صديقي يسأل حائرًا:

– ألَمْ تَحنّ إلى ولدك الوحيد وزوجتك الوفية، اللذين يذكرانك دائمًا، ولا تغيب عن عيونهما برهةً، منذ أنْ رحلتَ عنهما؟!

طأطأ رأسَه يفكّر، ثُمّ رفعه:

– أجيبكَ بلا لَفٍّ ولا دَوَران، بأنني لا أستطيع أنْ أتَخلَّى عن شخصيات مرموقة، ما كنتُ أحْلُمُ أنْ ألتقيَها كلَّ حين، بل هي التي تلتقي بي لتسألَني عن حال الدنيا، لأنّني آخر من حلَّ بتلك الأرض الطيبة!

لَمَسَ صديقي جبينَ أبي:

– عفوًا، سيّدي، ألَمْ تُصبْك ضربةُ شَمس قويةٌ، وأنت في طريقك من منزل الزوجة الثانية إلى هذا المَقهى؟!

افترَّتْ شفتاهُ عن ابتسامة وَدود:

– أصْغِ إليَّ، ولا تُسئ الظَّنَّ بأنَّ لي بيتًا ثانيًا!..سوف لا تصدّقني إذا قلتُ لك إنَّني رأيتُ بعينيَّ إخوانًا مُتَحابِّين، متآلفين، مستأنسين، على سُرُر مُتقابلين، يقضون أوقاتَهم في إلقاء الشعر، وقراءة القصص، وتعطير جلساتهمْ بالفكاهة المُهَذَّبة، ولا يكترثون بتاتًا بالسياسة والسياسيين، والمُعْظلات الاجْتماعية والاقتصادية. وكلّ ما يُنَغِّص نفوسَهم، ويُكَدِّر أمْزجتَهم، كما الأمر هنا عندكم. فأنا جئتُ فقط لأفي بوعدي لابني، فلْذَة كبدي، ثُمَّ أعود، ريثما يُمْضي سنوات من حياته في الدنيا، ولَمَّا يَشيخ مثلي، ويثْخَم من حالِها السيئة، يلتحق بي، لينعم بتلك الرِّياض الفسيحة!

وكأن صديقي لَمْ يسْتَسِغْ جوابَه، فسأله ليُحْرِجَه:

وما أخبار الذين سبقوك؟.. أعْني كيف حالُهُمْ هناك؟

اسْتَوى في جلْسَته قائلًا:

– الآن، أشهد أنك تفكّر جيدًا!.. ما أن وَطئَتْ رجلايَ العالَمَ الآخر، حتّى رأيت حلقة تَحْتَ شجرة عظيمة، وارفة الظلال، تنشُر طيبَها الزَّكي، وتنثُر زَهْرَها العَطر على الرؤوس. فانضَمَمْتُ إلى الْحلقة، لأنّ جُلَّها من الْمَغاربة وبعض الْمصريين. هل تدري من يترأسُها؟!

ابْتَسَم صديقي مُجيبًا، وهو يغمزني:

طبعًا لا، لأنَّ أجَلي لَمْ يَحنْ بَعْدُ، فأصْحَبَك إلى هناك!

إنه الأستاذ علال الفاسي «قائد سياسي، وعالم وشاعر مغربي كبير»!

وكيف عرفتَهُ؟!

– كنا، ونَحْن أطفال صغار، نلتقي في منزل الأستاذ مُحَمَّد مَكْوار بساحة البطحاء، لنردِّد الأناشيدَ الوطنية، وكان سيدي علال يَحْضُر، بين الفينة والأخرى، ليتفقدَ حالَنا!.. ما علينا، بمُجَرَّد أنْ رآني أتَّخذ مكاني بين الْمُتَحَلِّقين حولَه، توقَّف عن الكلام، وأشار إلَيَّ:

– مرحبا بك، أخي!.. ألا خَبِّرْني عن فلسطين، فأنتَ آخر من التَحَق بنا؟!

أجبته بصوت متقطِّع:

– أليس.. من الأَوْلى.. أنْ تسألني عن حال حزبك؟

نظر إليَّ طويلًا، ثُمَّ ردَّ باسمًا:

– أنا مُطْمَئِنٌّ تَمامًا عليه، ولا داعيَ إلى السؤال عنه، لأنّه ينهج، منذ تأسيسه، سبيلَ التعادلية والوسطية التي تساير الطبيعة البشرية، ولو اختلفتْ آراءُ أبنائه. لذلك سألتك عن البلد العربي، الذي تركته مُحْتلًّا، وأنا ألفظ نفَسي في رومانيا، وكانت فلسطين من بين آخر ما نطقتُ به!

وهنا انْبرى الأديب عباس مَحْمود العقاد شاهدًا:

– يكفي الأستاذ علال فَخرًا أنْ ترك لأبنائه ((النقد الذاتي)) الكتابَ الذي قرأته بشوق ولَهفة، وكتبتُ عنه في مَجلاتنا المْصرية، بل تَمَنَّيْتُ لو كنتُ أنا مُؤَلِّفه. ففيه يَجدون الأسسَ الثابتَة لبناء البلاد، وتَجْذير القيم العليا بين أفراد شعبها، وهذه الأسس لا غنى عَنْها لأيّة دولة وأُمَّة. وكنّا إلى جانبه، عندما كان بيننا في القاهرة، ينادي باستقلال دول المْغرب العربي جَميعها، وتَحْرير فلسطين. ولمَّا عاد إلى مراكش (يقصد المْغرب) دعا إلى تَحْرير الصحراء، وتَجْديد الفكر، وإلى التربية والتعليم الْحَديثين، دون التَّفريط بالقيم الْعربية، وإلى إقرار دستور جديد، والتضامن والتكافل بين كافة الفئات الاجْتماعية، حتّى أطلقنا عليه اسْمَ: (مُحَمَّد عبده المْغْربي)!

سكت العقاد، فاغتنمتُها فُرصةً لأجيبَ سيدي علال بوجه حزين:

– يؤسفني أنْ أخبرك بأنّ فلسطينَ ما زالتْ، كما تركتَها، بين أيدي الغُزاة، يعيثون فيها فسادًا، ويقضمون أرضَها قطعةً قطعةً، ويُلْقون بشعبها في المْخَيمات، على مَرْأى من ساسة الْعالَم!.. والأدْهى والأمرُّ، أنّها ازدادتْ تقسيما وتفتيتا، فأصبحتْ غزّة في

جهَة، والضِّفّة الغربية في جهة أخرى، فَمَنْ، يا تُرى، سيجمع شَمْلَهُما، ويُوَحِّدُهُما ليُقاوِما الاحْتلالَ البغيضَ؟!

الْتَفَتُّ إلى يَميني، فوجدتُ الشاعر الكبير مُحَمَّد الْحَلْوي جالسًا بجانبي:

أأنتَ، الآن، مُطْمَئِنُّ البالِ، أم ما زلتَ مُغاضبًا؟!

ردَّ عليَّ، وعلامةُ الرضا ترتسم على شفتيه:

- أجل، أنا في غاية السرور!..كيف لا، والواحد منّا، كما ترى بعينيك، ينعَمُ بعيشة راضية، ما حلم بها من قبلُ؟!.. لَمْ أعُدْ في حاجة إلى مالهمْ، أو دوائهم وعلاجهم.. ليكْنزوها في صناديقهم. فهنا، ولله الْحَمَد، لا نشعر بجوع أو ظمأ، ولا يُصيبنا مرض أو نزلة برد، ولا تضربُنا شَمْس أو تُصيبنا كوارث، ولا نسمع أخبارًا سيئة!.. أتذكّر حين تنكّروا لعطاءاتي الشعريّة على مدى ستين عاما فأكثر، فحرموني حوالتي الشهريّة، وأنا على فراش الْمَوْت؟!
- نعم، مازلتُ أذكر تلك القصائد الْجَميلة!..كانتْ كلها اعْتزازًا بالوطن ورجالاته، وبالأرض وشعبها، وما زالتْ مكتبتي في الدنيا تَحْتفظ بنسختين من كلّ دواوينك، لحُبّي الشديد لَها، وما تتميَّز به من لغة رصينة، وتعابير دقيقة، وشكل فنيّ عالٍ، يُعيدنا إلى عصر فُحول الشعراء كالْمُتنبي والْحَريري...!

وتنفَّس عَميقًا، كأنّه كان يَحْمل على كاهله عِبْئًا ثقيلًا:

- شكرًا لله الذي أسكنني فسيحَ جِنانه، فَخَلَّصني من جيل ناكرٍ للجَميل!
- لا تنسَ أنَّ شعْرَك ما زال يُدَرَّس في كل الْمُؤسسات التعليميّة من الابتدائية إلَى الْجامعيّة، فَلَمْ يَجِدوا من الشعراء من يَمْلأ

غيابك. كما أنّ كاتبَ قصتنا هذه، حَمَل نسخًا منها إلى مكتبة الإسكندرية، ليعتمدَها الطلبة والباحثون من كل أنْحاء الْعالَم!

وهنا انبرى الأديب طه حسين شاهدًا:

– لنْ أنسى تلك الأيامَ التي أمضيتُها في تطوانَ وفاس، فبين جَنبات القرويين، ألقى عليَّ الشاعر الْحَلْوي نصًّا شعريًّا رائعًا، هَزَّ كلَّ أحاسيسي. قُلْتُ أثْناءَها:

– «ماسَمِعْتُ مثلَ هذا الشعر لا في الشرق ولا في الغرب»!.. وأنا أستغرب، كيفَ لا يُحْتَفى بهَذا الشاعر؟!.. لو كان ينتمي إلى دولة أوروبية، لأقاموا له مهْرجانا كلَّ سنة، كما تُنَظِّم فرنسا ذكرى شاعرها فيكتور هيجو!

ونَحْنُ كذلك، إذْ بصوت ينبعث من يساري، فأدرتُ رأسي، فوجدتُ الكاتب الصِّحافي عبد الْجَبار السحيمي:

– تلك هي طبيعة ذلك الْجيل، لَمْ تتغيّر بَتاتًا، وستظلّ إلى حين!.. لقد حاولتُ سنين طويلة أنْ أُديرَ كلَّ الْخُيوط الْمُخَبَّلة الْمُتشابكة، لأنسُجَ زربيةً متناسقةَ الألوان، لكنّها، والعياذ بالله، كانتْ تأبى أنْ تنْتَظم!

قاطعته في دهشة:

– وماذا تعني بالْخُيوط؟!

– حضرتُ العديد من الْمُؤتَمرات، أمَلاً في التَّوْفيق بين الأدباء والصِّحافيين والسياسيين، على اختلاف اتِّجاهاتهمُ الفكرية والْمَذْهبية. والْحَقيقةُ أنَّهُمْ قَدَّروا دَوْري النَّبيلَ بينَهم، لكنَّهم آثروا مصالحَهُم الذاتية، فجَنَحوا للفُرْقة والشِّقاق، وأبَوْا أنْ

يلتَئموا ويلتحموا. وكنتُ، كلَّ يوم، أعصر قلمي، ليُفْرزَ قصصًا وأعْمدةً قصيرةً، تَنقل هُمومَ الشَّرائح المَنْسية. وهذا في الْواقع آلَمَني كثيرًا، وحال دون أنْ أعيش حياةً عاديةً، وإنْ حاولتُ عبثًا أنْ أُخْفيَ ثقْلَ عذاباتي النفسية العميقة بمُمارسة الرياضة وهوايةِ صيد السمك. كما أنني لَمْ ألْهَثْ وراءَ المَناصب، أو أفكِّرْ في تكديس الْمال، رغْمَ الفُرص المُتاحة. ولقد كابدْتُ الأَمَرَّيْن من موت الضَّمير والفكر في تلك الأرض، وفي النهاية، لَمْ أستطَعْ أنْ أتَحَمَّلَ مساحات الْخَرائب، سواء في الساحة الأدبية أو السياسية، ولا تلك الْهَزائم والنكسات القومية المُتوالية، من معارك ستة وخَمْسين، إلى سبعة وستين، إلى ثلاثة وسبعين، إلى مآسي العراق وفلسطين..فَحَلَّقتُ في سَماء النِّسْيان، لَمَّا أيقنتُ باستحالة اسْتئْصال الْوَرَم!

شعرتُ بيد خفيفة تنزل برفق على كتفي. تَحَسَّسْتُها، فإذا هي يد المُؤرِّخ عبد العزيز بنعبد الله.

أشار إلى الشاعر الْحَلْوي والكاتب السحيمي مؤيِّدًا:

– لَمْ يقولا إلَّا حَقًّا!.. فأنا، مثلًا، خَدَمْتُ لُغَتي خَدَمات جُلَّى، وأَلَّفْتُ كُتُبًا لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، في تاريخ الْحَضارة المَغربيَّة، أُعَرِّفُ بها جيلَنا المَغربي، وأصونُها في موسوعات، كيلا تتلاشى وتندثر. وحاضرتُ في العديد من كُبْريات الْجامعات في القارات الأربع، وفُزْتُ بجَوائزَ تقديرية من دول عربية وغربية. وقبل أنْ أتوفى بعشر سَنوات، أهْدَيتُ مكتبتي إلى جهات ثقافية، كيلا تطالَها الأيْدي العابثة، وهي تضُمُّ خَمْسةَ آلافَ كتاب بين مَخْطوط ومَطْبوع. ولَمَّا أتى أجَلي، لَمْ تُنْشَرْ عني إلّا أخبارٌ مُحْتَشمة، كأنّني

لَمْ أساهمْ في نَهْضة بلدي!.. فهَبْ، لو كنتُ مطربا مُهَرِّجا، هل تدري ماذا سيحدث؟!.. ستهْتَزُّ كلُّ وسائل الإعلام لرحيلي، من مرئية إلى مسموعة إلى مكتوبة إلى رقميّة، وستُخَصِّص لي برامجَ، تُعَدِّدُ فيها أعْمالي الفنية، ووو...!

وهنا انْبَرى الكاتبُ الْمِصْري مُحَمَّد سعيد العريان شاهدًا:

– هذا هَرَمٌ من أهرام اللغة العربية، وموسوعة علمية وحضارية تَمْشي على قَدَمَيْها في كل أنْحاء الدنيا. فأنا، مثلًا، عندما قَدمتُ إلى بلادكم مراكش الْكَريمة)يقصد المغرب(لَمْ أجِدْ مَنْ يُحَفِّزُني على الكتابة إلّا هذا الرجل الْفَذّ، فأمدَّني بما لديه من مَراجعَ ومَصادرَ تاريخيّة وأدبيّة، ساعدتني كثيرًا على تأليف كتب تعليمية للأطفال الْمَغاربة.

وختم أبي كلامه متسائلًا:

– إذنْ، بعد أنْ حكيتُ لَكُما غَيْضًا من فَيْض لقاءاتي وجلساتي مع هذه الشخصيات الرَّفيعة، هل تفضِّلانَ أنْ أعودَ إلى ذلك العالَم الراقي، أمْ أظلَّ في هذا العالَم السفلي، بين جيل تائه، لا يُقيمَ وزنا للثقافة والعلم والأدب والْمَعرفة؟!

ردَّ صديقي على الْفَوْر:

– أنا لا أستطيع أنْ أجيبَكَ، سيّدي، لأنَّ والدي توفي قبلَك بسنوات، ولَمْ يَعُدْ لحَدِّ الساعة، ليخبرني بما رأيتَ!

تفرَّسَه أبي من قُنَّة رأسه إلى أخْمَص قدميه، ثُمَّ سأله:

– ومَنْ قالَ إنَّ أباك لَمْ يَعُدْ؟!.. هل لديك دليل؟!

رد صديقي مُستغربًا:

– كيف، سيدي؟!.. لَمْ أفْهمْ ما تعنيه!

– اسْمَعْ، بُنَيَّ!..كلّ الآباء يغادرون الْحَياةَ، وكذلك الأُمَّهاتُ، لتتجدَّد الأفكار والرُّؤى والأعْمال!.. هكذا يظهر لنا، لكنّهم في الْحَقيقة، يستمرّون فيها عَبْرَ أبنائهم وبناتهمْ، لأنَّهُمْ يُوَرِّثونَهُمْ بعضًا من تضاريس شخصياتهمْ، مثْلَما يُوَرِّثونَهُمُ الْمالَ والْعَقارَ. فابْني نُسخة مني، وأنتَ نَسَخة مطابقة لوالدك، وبالتالي، فإنّه دائمًا حاضر فيك!

أطلق صديقي الْعنانَ لخَياله، وأبي لاذ بالصمتِ، لا ينبِسُ بكَلمةٍ، ينتظر عودته إلى أرضِ الواقعِ...!

وبعد لَحَظات قليلة، انْتبهَ قائلًا:

– صدْقًا قُلْتَ، سيِّدي!.. لقد عاد والدي في شخصي، ولَمْ أنتبهْ!

ابْتَسَمَ أبي، ونَهَض من فوق الكرسي، ثُمَّ انصرف من الْمَقهى، رُوَيْدًا رُوَيْدًا، وهالةٌ من نور بهيّ تَحُفُّه، فيما بقينا نَحْنُ نتتبعه بأعيننا، حتّى توارى عنّا وسطَ الزُّحام، كما سنتوارى، نحن أيضًا، يومًا ما...!

الكاتب

سيرةُ حياتِه..وسيرةُ كتابتِه

من مواليد ٣٠/ ٠٦/ ١٩٤٨ بفاس - المغرب. حائز على دبلوم التربية والتعليم ١٩٦٩. شارك في تَحْرير صحيفة «الشعب» ١٩٦٩. أصدر صحيفة «الطفل» أكتوبر ١٩٧١. حصل على جائزة اليونسكو العالَمية عن«قاسم أمين وتَحْرير الْمرأة» ١٩٧٥. هيأ لمَجلة «الثقافة» السورية عددًا خَاصًّا بالأدب الْمغربي ١٩٨١. نال الْجائزة الأولى للعرض الثقافي في الْمهرجان الْمغاربي الأول لمسرح الطفل ١٩٩٠. وشهادة الاستحقاق من لَجنة الْمهرجان الثاني للحكاية الذي نظمته جامعة ابن زهر بأكادير ١٩٨٨. انتدبه «اتِّحاد كتاب الْمغرب» لندوة «الطفل والْمسرح» بتونس ١٩٩٠. حائز على جَائزة الْهيئة الْمصرية العامة للكتاب في مَجال مسرحية الطفل ٢٠١٦ وجائزة ناجي نُعْمان العالمية ٢٠١٧. نشر دراساته في الْجَرائد: الكفاح الوطني، العلم، البيان، الْميثاق الوطني، الْمنظمة، السياسة الْجديدة،أنوال،الْجسر (هولاندة)..والْمَجلات: الآداب،الْموقف الأدبي، الدوحة، الطليعة الأدبية، الأديب، الكاتب العربي، البحرين الثقافية، إبداع، مشارف مقدسية... وقصص الطفولة في: «عرفان» و«الرياض» التونسيتين، و«باسم» و«براعم الإيمان» و«العربي الصغير» و«الْمثقف الصغير» اليمنية.

- رئيس تَحرير القسم العربي بالشركة الدولية للإعلام بسويسرا ٢٠٠٧.
- مدير مَجلة «كتابات» الفكرية الإبداعية، ومَجلة الطفل «سامي» ١٩٩٠.
- عضو اتِّحاد كتاب الْمغرب ١٩٨٢
- عضو اتِّحاد الكتاب العرب ١٩٩٢
- عضو اتِّحاد الصِّحافيين العرب بهولندا ١٩٩٩
- عضو الْجمعية الْمغربية لحقوق الإنسان ١٩٨٠
- عضوية فخرية في مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٧
- معلم ثُم أستاذ اللغة العربية ١٩٦٩.

– أستاذ التربية وعلم النفس بمعهد المربيات ١٩٧٨.
– اعتمدت دول أوروبية، ومنظمات عالمية قصصه في التربية غير النظامية.
– منشط «ساعة الحكي» للأطفال في العديد من المدارس والإعداديات والمعاهد والجمعيات والدور الاجتماعية بالمغرب ودول عربية وأوربية...
– حاضر في كليات الآداب، ومعاهد الإعلام بالمغرب وخارجه.
– رئيس لجنة التحكيم في المهرجان الدولي للحكاية بأكادير منذ ١٩٩٥.

مؤلفاته النقدية.. والإبداعية

١- تيار الوعي في الأدب المغربي المعاصر: اتحاد الكتاب العرب سورية ١٩٨٣
٢- أدب الأطفال في المغرب (دراسات نقدية): مطبعة الرسالة بالرباط ١٩٨٥
٣- النصّ المفتوح (قراءات في الأدب المغربي): مطبعة الرسالة بالرباط ١٩٨٦
٤- أبعاد النص (قراءات في الأدب المغربي): مطبعة الرسالة بالرباط ١٩٨٦
٥- جدال وسجال «محاضرات، حوارات...» مطبعة المعارف بالرباط ١٩٨٦.
٦- سفر في أنهار الذاكرة «سيرة ذاتية»: دار الفرقان للنشر بالدارالبيضاء ١٩٨٧.
٧- شعر الأطفال «مشترك»: الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٨.
٨- أدبيات الطفل المغربي «بيبليوغرافية»: مطبعة المعارف بالرباط ١٩٩١.
٩- تضاريس الكتابة «في الأدب المغربي»: نداكم بالرباط ١٩٩٧.
١٠- كتاب الطفل بالمغرب «بيبليوغرافية»: مطبعة معمورة بالقنيطرة ٢٠٠٠.
١١- ثقافة الطفل العربي «دراسات مشتركة» كتاب «العربي» أكتوبر ٢٠٠٢.
١٢- المُمثل – الظل والشخصية «مسرحيتان»: مطبعة سلمى بالرباط ٢٠٠٥.
١٣- المعنى والمبنى: دراسات للرواية العربية: دار نشر المعرفة بالرباط ٢٠٠٦.
١٤- الخلفية : مجموعة قصصية المطبعة السريعة بالقنيطرة ٢٠٠٦
١٥- الصوت و الجسد: عن مبارك الدريبي - المطبعة السريعة بالقنيطرة ٢٠٠٦.
١٦- الصوت والجسد: عن مُحمد الطوبي- المَطبعة السريعة بالقنيطرة ٢٠٠٦.
١٧- سَفَر في أنهار الذاكرة: (طبعة ثانية): المَطبعة السريعة بالقنيطرة ٢٠١٢

١٨- الْخَلفية: (طبعة ثانية): الْمَطبعة السريعة بالقنيطرة ٢٠١٢
١٩- سؤال الكتابة في الأدب الْمَغربي: الْمَطبعة السريعة بالقنيطرة ٢٠١٣
٢٠- أسئلة الطفولة: (في التربية والثقافة والصحة): السريعة بالقنيطرة ٢٠١٤
٢١- أنْ تُسافر: (رحلات): الْمَطبعة السريعة بالقنيطرة ٢٠١٤
الطبعة الثانية: الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ٢٠١٧
٢٢- أسئلة الطفولة (طبعة ثانية): جليس الزمان عَمّان، الأردن ٢٠١٥
٢٣ – كنت معلما (سيرتي التعليمية): الْمَطبعة السريعة بالقنيطرة ٢٠١٥
٢٤ – الأعمال لإبداعية الكاملة: الْمَطبعة السريعة بالقنيطرة ٢٠١٦
٢٥ – ثقافة الطفل: دار التوحيدي للنشر والتوزيع ٢٠١٦
٢٦ – ما تبقى لي (آراء وذكريات): المطبعة السريعة بالقنيطرة ٢٠١٧
٢٧ – هندسة الكتابة الروائية: دار المحرر الأدبي بالقاهرة ٢٠١٧

أعماله الأدبية في التربية غير النظامية

١- صوت من ذهب (الْجزء الأول): نداكم للطباعة والنشر بالرباط ٢٠٠١.
٢- صوت من ذهب (الْجزء الثاني): نداكم للطباعة والنشر بالرباط ٢٠٠٣.
٣- قاضي الأسرة (مسرحية): شركة نداكم للطباعة والنشر بالرباط ٢٠٠٥
٤- يد الوسيط (قصص): شركة نداكم للطباعة والنشر بالرباط ٢٠٠٨
٥- خذ بيدي (قصص): الْمطبعة السريعة بالقنيطرة ٢٠٠٩
٦ - كأن شيئا لَمْ يكنْ (قصص): شركة نداكم للطباعة والنشر بالرباط ٢٠١٠
٧- زكية الذكية (قصة طويلة): شركة نداكم للطباعة والنشر بالرباط ٢٠١٥

في أدب الأطفال

١- قصص من عالَم الْحيوان: دار الثقافة بالدار البيضاء ١٩٨٦
٢- قصص تربوية لَلأطفال: مطبعة الْمعارف بالرباط ١٩٨٦-١٩٨٧
٣- قصص طريفة للأطفال: مطبعة الْمعارف بالرباط ١٩٨٦-١٩٨٧
٤- أنغام الطفولة (شعر): مطبعة الْمعارف بالرباط ١٩٨٦-١٩٨٧

٥- قصتي الْجميلة: مكتبة الْمدارس بالدار البيضاء ١٩٨٨
٦- أقرأ وألون (لوحات شعرية - فنية) مكتبة الْمدارس بالدار البيضاء ١٩٨٨
٧- أحكي لكم يا أطفال: مطبعة عكاظ بالرباط ١٩٨٩
٨- فكِّر معي (قصص): مطبعة عكاظ بالرباط ١٩٨٩
٩- ثلاث مسرحيات للأطفال: مطبعة بابل بالرباط ١٩٨٩
١٠- قصص الطفل السعيد: مطبعة الْمعارف بالرباط ١٩٩٠
١١- قصص لولدي: مطبعة الْمعارف بالرباط ١٩٩٠
١٢- قصص الطفل النبيه: مطبعة الْمعارف بالرباط ١٩٩٣
١٣- الكنز (نص مسرحي) "اقرأ" للطباعة والنشر بالقنيطرة ١٩٩٤
١٤- قصص لكل الأطفال (بالَفرنسية): مطبعة الْمعارف بالرباط ١٩٩٥
١٥- قصص علمية للأطفال (السلسلة الأولى): مطبعة الفردوس بالرباط ١٩٩٥
١٦- قصص سامي وليلى: مطبعة الْمعارف بالرباط ١٩٩٦
١٧- قصص علمية للأطفال (السلسلة الثانية): مطبعة أمبر مانور بالقنيطرة ١٩٩٦
١٨- قصص الكتكوت: نشر أنتركراف بالرباط ١٩٩٧
١٩- قصص عالَمي الْجميل: دار الثقافة بالدار البيضاء ١٩٩٧
٢٠- حكايات من ذهب (قصص شعرية): الْمطبعة السريعة بالقنيطرة ١٩٩٨
٢١- حتى الشجر يغني (قصائد): الْمطبعة السريعة بالقنيطرة ١٩٩٨
٢٢- ابن بطوطة معنا (سيرة غيرية): الْمطبعة السريعة بالقنيطرة ١٩٩٨
٢٣- قصص ريم وكريم: مكتبة الْمدارس بالدار البيضاء ١٩٩٨-١٩٩٩
٢٤- قصص من الْخيال العلمي: مكتبة الْمدارس بالدار البيضاء ١٩٩٨-١٩٩٩
٢٥- أحكي حكاية: دار الثقافة بالدار البيضاء ١٩٩٨-١٩٩٩
٢٦- قصص الْمحامي الصغير (٩ سَنوات): مكتبة الْمدارس بالبيضاء ١٩٩٩
٢٧- قصص الْمحامي الصغير (١٢ سنة): مكتبة الْمدارس بالدار البيضاء ١٩٩٩
٢٨- سلسلة (قصتي): الْمكتبة الْمحمدية بالدار البيضاء ١٩٩٩
٢٩- تراثنا الْجميل للأطفال (مسرحات): الْمكتبة الْمحمدية بالبيضاء ١٩٩٩

٣٠- قصص خيالية (بالفرنسية): دار الثقافة بالدار البيضاء ٢٠٠٠-٢٠٠١
٣١- مغامرات سامي: مكتبة الأمة بالدار البيضاء وربيع بحَلب، سورية ٢٠٠٠
٣٢- يُحكى أنَّ (قصص): دار الثقافة بالدار البيضاء ٢٠٠٠
٣٣- حديقة اللغة "مجموعة قصصية" دار الثقافة بالدار البيضاء ٢٠٠١
٣٤- قصص عالَمية للأطفال دار الثقافة بالبيضاء ٢٠٠٢
٣٥- طائر للكويت (قصة طويلة): نداكوم بالرباط ٢٠٠٢
٣٦- مغامرات عمر: دار نشر المْعرفة بالرباط ٢٠٠٢
٣٧- قصص الْحيوان في القرآن: دار الثقافة بالبيضاء ٢٠٠٣
٣٨- قصص الطفل الناجح: دار الثقافة بالبيضاء ٢٠٠٣
٣٩- قصص من هنا وهناك: مكتبة التراث العربي بالدار البيضاء ٢٠٠٥
٤٠- قصص العظماء: دار التراث العربي بالدار البيضاء ٢٠٠٥
٤١- قصص المْجال: دار الثقافة بالدار البيضاء ٢٠٠٥
٤٢- أقرأ وأستمتع : (قصص للأطفال) دار نشر المْعرفة بالرباط ٢٠٠٥
٤٣- قصص الطفل المغامر: شركة نداكم للطباعة والنشر ٢٠٠٨
٤٤- هذه حياتي: (سير ذاتية للعظماء) دار الثقافة بالدار البيضاء ٢٠١٠
٤٥- قصص الْحروف : (٤ سنوات) دار الثقافة بالدار البيضاء ٢٠١٠
٤٦- أحكي لطفلي: (٤ سنوات) دار الثقافة بالدار البيضاء ٢٠١٠
٤٧- أصدقائي الْحيوانات: (قصص علمية) دار نشر المْعرفة بالرباط ٢٠١١
٤٨- سلسلة أبي الفنون: (مسرحيات) دار نشر المْعرفة بالرباط ٢٠١١
٤٩- قصص من الأدب العالْمي: طوبْ إيديسْيونْ بالدار البيضاء ٢٠١١
٥٠- حديقة الطفل: (قصص متنوعة) طوبْ إيديسْيونْ بالدار البيضاء ٢٠١١
٥١- قصص الأنبياء: طوبْ إيديسْيونْ بالدار البيضاء ٢٠١٢
٥٢- قصص مدني الْجَميلة في ستِّينَ كتاباً دار الثقافة بالدار البيضاء ٢٠١٢
٥٣- قصص الأنبياء: طوبْ إيديسْيونْ بالدار البيضاء ٢٠١٢
٥٤- قصص مدني الْجَميلة في ستِّينَ كتاباً دار الثقافة بالدار البيضاء ٢٠١٢
٥٥- أبني وطني (قصص): المْطبَعة السريعة بالقنيطرة ٢٠١٤
٥٦- بَهْلوان الْحَي (قصة): اتِّحادُ كتابِ المْغربِ ٢٠١٤

٥٧- قصص التكنولوجية للأطفال: مكتبة المدارس بالبيضاء ٢٠١٦
٥٨- أصدقاء الْحَديقة (مسرحية): الْهيئة الْمصرية للكتاب بالقاهرة ٢٠١٦.
٥٩ – حروفي في قصص: دار نشر الْمَعرفة بالرباط ٢٠١٦
٦٠ – أبطال وطني: (قصص تاريخية) دار الْحَلبي بتمارة – الرباط ٢٠١٨